الفصل الأول

العوامل التي أدت إلى نشأة الأسواق العالمية

ويشتمل على :

(١) انهيار النظام الإقطاعي ونشأة المدن .
(٢) العامل الجغرافي .
(٣) الحروب الصليبية على بلدان العالم الإسلامي شرقا وغربا .
(٤) انتعاش التجارة العالمية

(١) انهيار النظام الإقطاعي ونشأة المدن :

تعرضت أوروبا خلال القرون الأولى من العصور الوسطى لفترة من الانحلال، وشهدت خلالها سلسلة من الاضطرابات بسبب انهيار المجتمع الروماني وما ترتب عليه من اجتياح للقبائل الجرمانية المتبربرة[١]، إلى جانب الفتوحات الإسلامية التي امتدت من القرن السابع إلى القرن العاشر الميلاديين في غرب حوض البحر المتوسط وشمال أفريقيا وأسبانيا Spain، وصقلية Sicily[٢] وجزر البحر المتوسط في سردينيا Sardinia[٣]، وكورسيكا Corsica[٤]، مما جعل المسلمين يسيطرون على طرق التجارة الأمر الذي أسهم في الانهيار التجاري الذي شهدته أوروبا[٥]، واستمرار الركود الاقتصادي[٦].

وأمام هذا الدمار الشامل الذي أصاب أوروبا من جراء هجمات الجرمان

---

(١) عن الجرمان انظر:

- Hubert (H.), Les Germains, Paris, 1952.
- Karsten (T.E.), Les Anciens Germains Paris, 1931.
- Lot (F.), Les Invesions Germaniques, Paris, 1935.

(٢) نجح المسلمون في الاستيلاء على جزيرة صقلية، في القرن التاسع، من أيدي البيزنطيين، ومنذ استيلائهم عليها اتخذوها قاعدة للهجوم المتكرر على جنوب إيطاليا لطرد البيزنطيين منه. وقد استمر هذا الهجوم بصفة شبه متواصلة مدة قرنين من الزمان، وتمخض عن سلب ونهب كثير من قرى ومدن إيطاليا ووقوع بعض هذه المدن في قبضة المسلمين في بعض الأحيان. عن ذلك انظر: سميرة يونس عبد القادر، النورمان والدولة البيزنطية في القرن الحادي عشر الميلادي، ط١، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٩.

(٣) سردينيا : تقع في الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية بين برشلونة والحدود الأسبانية. انظر :
Setton, A History of the Crusades, Vol II, P. 615.

(٤) كورسيكا : هي الجزيرة الرابعة من حيث الكبر بعد صقلية وسردينيا وقبرص، في البحر المتوسط، تقع على بعد ١٦٩كم جنوب فرنسا، ٥٦ ميل شمال غرب إيطاليا. عنها انظر:
The New Encyclopaedia; Vol. III, P. 168.

(٥) رغم سيطرة المسلمين على البحر المتوسط إلا أن الطريق البحري ظل أكثر أمانا من البري للوصول إلى الغرب. عن ذلك انظر: عفاف صبره، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية، ص٥٢.

(6)Thompson (J.W.), Johnson (E.N.), Medieval Europe 300 – 1500, New York, 1965, PP. 562 – 563.

المتبربرين لم يكن أمام الناس إلا أن يبذلوا قصارى جهدهم لحماية أنفسهم منه[١]. بعد أن أصبح بقاؤهم محل تساؤل خاصة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، فكان الحل المتمثل أمامهم هو الإقطاع[٢]. حيث سعت النظم الإقطاعية لتغيير حالة الفوضى السائدة، وتحقيق الاستقرار والأمن لأوروبا خاصة بعد الفوضى التي تلت اضمحلال الإمبراطورية الرومانية[٣]. على أن هذه النظم الإقطاعية المعتمدة على نظام الضيعة الذي انتشر في الغرب الأوروبي، لم تكن النظم المفضلة لتقدم الزراعة والتجارة؛ لأن أهل الضياع الإقطاعية نزعوا للاكتفاء الذاتي، وأصبح الاقتصاد مغلقا.

وعاش الناس في عالمهم الصغير يتملكهم خوف دائم من العالم المجهول بالنسبة لهم، هذا العالم الذي لم يأت منه – في تصورهم – إلا كل شر. لذا فإن أفضل ما كانوا يأملون فيه هو أن يتحملوا، وفعلا تحملوا[٤]. لكن هذا الأمر لم يستمر طويلا، وبصورة خاصة بعد أن زادت السلطة الحاكمة من قبضتها في أوروبا أواخر العصور الوسطى، وحلت الحكومة المركزية محل الإقطاع والحكومات المحلية والجيش النظامي الثابت

---

(١) جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى، ص١٢٤.

(2)Thompson, Johnson, Medieval Europe, P. 563.

عن النظام الإقطاعي في أوروبا انظر :

- Critchely (D.S.), Feudalism, London, 1978.
- Marc-Bloch, Feudal society, trans. By, L.A. Mayan, 2 Vols, London, 1978.
- Stephenson (C.), Medieval Feudalism, New York, 1942.
- Coulborn, Feudalism in History, Princeton, 1950.
- Ganshof (F.L.), Feudalism, London, 1952.
- Williamson, From Feudalism to Despotism, London, 1925.

كوبلاند (ج. و)، الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا، ترجمة/ محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٥٥م.

(3)Adelson, Medieval, Commerce, P. 69.

عن الإمبراطورية الرومانية انظر:

- Bloch (G.), L'Empire Romain, Paris, 1931.
- Bryce (J.), The Holy Romain Empire, London, 1907.
- Chapot (V.), Le Monde Romain, Paris, 1927.

(٤) م. بيشوب، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة/ علي السيد علي، ط١، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٢٠٥.

القائم محل الجيوش الإقطاعية المعروفة. وهكذا أصبح الفلاح يتمتع بحماية الدولة له وأخذت مع الزمن تنقطع علاقته بالأرض التي يزرعها والسيد الذي كان يتحكم فيه وفي أسرته. كما أخذت القيمة الفعلية للواجبات المفروضة عليه تفقد هيبتها وفاعليتها في أواخر العصور الوسطى[١]، حتى أصبحت مجرد تقليد شكلي يسعى إليه الشخص بحكم القوانين المتحجرة التي اعتنقها وآمن بها العقل الوسيط نتيجة لظروف خارجية ألمت به[٢]. إذ على الرغم من سيادة التنظيم الإقطاعي للمجتمع الأوروبي آنذاك على مقدرات الحياة الاقتصادية والاجتماعية، فقد تخلقت في رحم النظام الإقطاعي مرحلة جديدة، كان التجار الأوربيون هم أول المعبرين عنها، وهي مرحلة سيطر فيها الانتعاش التجاري على المقدرات الاقتصادية للبلدان في وقت بدأ فيه النظام الإقطاعي يخفف من قبضته على السكان الأوربيين[٣]، بما كان يتضمنه من نفقات باهظة تجاه السادة[٤].

لم تحظ التجارة بمكانة مهمة في اقتصاد النظام الإقطاعي، لكنها ما لبثت مع حركة البضائع أن بدأت في التحرر بشكل تدريجي من الضرائب الإقطاعية والرسوم التي قام بفرضها السادة الإقطاعيون مما دفع بالتجار إلى سكنى المدن الجديدة[٥]. وهكذا ظهرت الطبقة البرجوازية الجديدة وهي الطبقة التي تألفت من الصناع والتجار، إلى جانب العمال والحرفيين المهرة. وكانت هذه الطبقة سببا في إحياء التجارة والمدن

---

(١) لمعرفة الواجبات والالتزامات الإقطاعية انظر:

- Fulbert of Chartres, Fulberti Episcopi Carnotensis Epistolae, no. xxxviii, P.463.

(٢) جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى، ص ص١٢٣-١٢٤.

(٣) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٧١.

(٤) للاطلاع على بعض صور النفقات الإقطاعية تجاه السادة انظر:

- Agreement between the count of Hainault and the Bishop of Liége, 1076: Gislebert of Mons, Chronicon Hanoni ense,ed. L. Vanderkindere (Brussels, 1904), 13 – 14.

(٥) حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٧١.

الرومانية القديمة[١]، كما أوجدت مدنا جديدة لا حصر لها. وأسهمت أكثر من غيرها في التحرر من العبودية وفي زيادة عدد السكان[٢]. إذ بظهور هذه الطبقة بدأت في التخلص من القيود والالتزامات الإقطاعية، وتمتعت بالكثير بممارسة نشاطها التجاري والصناعي المحدود[٣].

كان الإقطاع المبني على وضع اليد على الأراضي المملوكة للسيد الإقطاعي عن طريق الوراثة مقابل الخدمة العسكرية نتاجا مميزا لمجتمع يعاني من نقص العملة التي ليس من المستطاع دفعها كأجور إلى المحاربين. لكن بظهور النظام الاقتصادي النقدي في أوروبا بدأت العلاقات الإقطاعية الأساسية في التفكك. خاصة عندما حل دفع الضرائب محل الخدمة العسكرية الشخصية التي كانت واجبا أساسيا بالنسبة للتابع الإقطاعي – وانتشرت هذه الحالة في كل مكان تقريبا بحلول القرن الثاني عشر – حتى فقد الإقطاع جوهره وروحه[٤].

شهدت أوروبا عددا من المتغيرات مكنتها من التطور السريع، منها زيادة عدد السكان إلى حد كبير، هذه الزيادة منحت أوروبا القوة الطبيعية اللازمة للتوسع الكبير. فالقاعدة الأساسية لزيادة السكان نتج عنها زيادة الإنتاج الزراعي[٥]. فكان هذا النمو السكاني هو المحرك الأساسي للتقدم الزراعي[٦]. إذ أن الفائض كان أكبر من المتوقع وذلك نتيجة لاستخدام الأدوات الزراعية كالمحراث الثقيل المجهز بعجلات وكذلك

---

(١) المدن الرومانية: بلغت هذه المدن أقصى درجات التقدم والنشاط خاصة في القرنين الأول والثاني الميلاديين، إلا أن تلك المدن القديمة لم تلبث أن أصابها الذبول نتيجة للأخطار التي تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية، فتناقصت مساحتها، وقلت أهميتها، وذبلت وربما اندثر بعضها. أما ما تبقى منها فلم يعد منذ القرن الخامس مركزا للنشاط الحيوي في أوروبا. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٨٩.

(2)Thompson, Johnson, Medieval Europe; PP. 563 – 564.

(٣) حاتم الطحاوي، الاقتصاد الصليبي، ص٧١.

(٤) س. ورن هلستر، أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة/ محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص١٦٧.

(5)Adelson, Medieval Commerce, P. 69.

(٦) لوبيز، ثورة العصور الوسطى، ص٧٧.

المحاريث التي تعمل على تقليب التربة كما أن استخدام هذه المحاريث مكنتهم من زراعة التربة الثقيلة بصورة جيدة في شمال أوروبا، كما انتشر في القرن الثاني عشر الميلادي استخدام الأطواق في صدور الجياد والتي كانت تستخدم في جر المحاريث للزراعة.

ومما سهل عمليات الزراعة أيضا توفر مياه الري خاصة وأن أوروبا كانت تتمتع بأمطار صيفية، إلى جانب تطبيق نظام الدورة الزراعية، مما أدى إلى زيادة الإنتاج[١]. أضف إلى ذلك نجاحهم في زراعة الأراضي البور، وإزالة الغابات وتجفيف المستنقعات[٢].

وكان الازدهار التجاري الكبير في القرنين العاشر والحادي عشر انعكاسا أو صورة للنمو الزراعي الذي كان نتيجة للزيادة السكانية، وقد ظهر هذا واضحا في إحياء التجارة المحلية.

ونتيجة لتطور الإقطاع، وضعف الاستقلال الاقتصادي للضياع الكبيرة في جميع أنحاء أوروبا الغربية، فإن الصناع الذين اعتادوا التواجد في هذه الضياع الزراعية، اضطروا للتوجه إلى المدن حتى يتمكنوا من شراء المواد الخام، ويقوموا بإمداد الأسواق الكبيرة بالبضائع، وقد أقام سكان المدن أسواقا تعتمد على الفائض الزراعي وعلى العمالة التي تستخدم في زيادة الإنتاج الصناعي. وصار تصنيع السلع ممكنا في المدن في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وتشعب العمل في مناطق التصنيع بأوروبا التي بدأت في التخصص آنذاك. وأدى هذا تباعا إلى زيادة المنافسة والكفاءة وتحرك الفلاحون من شمال أوروبا، في موجات دافعة إلى المدن ليسهموا في تحقيق الازدهار والحرية. ورحبت المراكز الحضرية بالمهاجرين ليس لأنهم منحوا المدن قوة استثنائية في كفاحها من أجل التحرر من الهيمنة الإقطاعية، لكن لأنهم قد أمدوها

([1])Adelson, Medieval, Commerce, P. 69.

([2])Adelson, Medieval, commerce, P. 69.

- Thompson, Johnson, Medieval Europe., P. 563.

بعمالة مكنتها من تحقيق إنتاج وفير[١]. فما شهته أوروبا من تغيرات سابقة أسهم بلا شك في تبدل الفكر الأوروبي مما أدى إلى انهيار الإقطاع وزواله من مختلف بلدان الغرب الأوروبي في أواخر العصور الوسطى، إلى جانب عدد آخر من العوامل أسهمت أيضا في هذا الانهيار، منها انتعاش التجارة والنتائج المترتبة عليها، إذ أن هذا الانتعاش أدى إلى ظهور الطبقة الوسطى[٢]، هذه الطبقة التي عاشت أول الأمر في كنف طبقة الأمراء الإقطاعيين وتحت حمايتها لكنها بعد ازدياد نفوذها نتيجة الثروة التي حققتها، تمكنت من الانفصال عنها والتفوق عليها حتى أصبحت طبقة مستقلة قائمة بذاتها لها نفوذها وسلطاتها، مما كان له أثره في انقلاب ميزان القوى بين الطبقات وأدى بالتالي إلى تدهور عصر الإقطاع[٣].

كما أحدثت الحروب الصليبية[٤]، هزة عنيفة في بنيان المجتمع الغربي آنذاك، حيث ساعدت هذه الحروب على إضعاف النظام الإقطاعي، بل وحله، لأنها فتحت

([1])Adelson, Medieval, Commerce, P. 70.

([٢]) تمثلت الطبقة الوسطى في الطبقة البرجوازية التي كانت وليدة الانتعاش التجاري، وقد تكونت تلك الطبقة من كبار التجار، أو بالأحرى الأغنياء الجدد، الذين شكلوا قادة البرجوازية، بل أصبحت كلمة تاجر Mercator وكلمة برجوازي Burgensis في البداية كلمتين مترادفتين. ولكن حين ارتقت البرجوازية كطبقة اجتماعية وضعت نفسها شرعيا في إطار طبقة من عنصر عالي الأصل، أصبح يحسب لها ألف حساب. عن ذلك انظر: بيرين، تاريخ أوروبا، ص ص٤٩-٥٣.

([٣]) جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى، ص ص١٢٥-١٢٧.

([٤]) الحروب الصليبية (٤٨٨-٦٩٠هـ/١٠٩٥-١٢٩١م) وهي الفترة الممتدة بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى، وطرد الصليبيين نهائيا من بلاد الشام. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية (صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى)، ج١، ط٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٥-٢٦.

عن الحروب الصليبية على الشرق انظر:

- Stevenson (W.B.), The crusaders in the East Cambridge, 1907.
- Archer (T.), Kingsford (C.), The Crusades, London, 1894.
- Atiya (A.S.), the Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.
- Setton (K.M.), A History of the Crusades, 5 Vols, Pensylvania, 1958 – 1985.

الباب على مصراعيه أمام أقنان الأرض للتخلص من أوضاعهم السيئة بحجة المشاركة في النشاط الصليبي وهو ما لم يستطع السيد الإقطاعي منعه، مما أدى إلى تصدع الكيان الإقطاعي وانقراض طبقة الأقنان تدريجيا من المجتمع الأوروبي الغربي[١]. خاصة وأن الحملة الصليبية الأولى[٢]، وحدها فتحت الباب أمام الآلاف الذين تركوا أراضيهم للاشتراك في النشاط الصليبي[٣]. بل إن السادة والفرسان تدافعوا للمشاركة فيها، أملا في الحصول على مستعمرات جديدة في الشرق[٤]، فكانت النتيجة قتل عدد كبير منهم وعودة إقطاعياتهم إلى أسيادهم، الأمر الذي ترتب عليه انهيار النظام الإقطاعي[٥].

والشئ المميز آنذاك أن انحلال نظام الإقطاع قد أدى إلى تقدم متناسب مع تقدم التجارة. بيد أنه كان أسرع في أقاليم ذات مدن كبيرة وتجارة واسعة مثل: لومبارديا Lambardy، وتسكانيا Tuscana، وشمال فرنسا، وإقليم الفلاندرز Flanders، عنه في وسط ألمانيا وانجلترا. إذ أن التقدم التجاري على ما يبدو أنه أدى إلى اختفاء نظام عبودية الأرض والاسترقاق إلى الأبد، وعليه فقد ذكر رئيس بلدية يبرس Ypres قائلا: "لم يعد عندنا عبيد ولا أيد عاطلة ولا أحد تشبه ظروفه ظروف هؤلاء"[٦].

---

(١) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ص١٠٠٧-١٠٠٨.

(٢) الحملة الصليبية الأولى (٤٩٠-٤٩٣هـ/١٠٩٦-١٠٩٩م) عرفت بحملة الأمراء، لتولي الزعامة فيها عدد من الأمراء. عنها انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص١١٩. عن الحرب الصليبية انظر: حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، القاهرة، ١٩٤٧م.

(٣) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا،ج٢، ص٨٥.

(٤) مثلما فعل بوهمند النورماني، الابن الأكبر لروبرت جويسكارد الذي وجد فيها فرصة لتحقيق أطماعه التوسعية في الشرق بعيدا عن منافسة أخيه في جنوب إيطاليا. عن ذلك انظر: سميرة يونس، النورمان، ص ص١٣٧-١٣٨.

عن دور الحروب الصليبية في انتعاش التجارة وبالتالي قيام الأسواق: انظر الحروب الصليبية على بلدان العالم الإسلامي، ص٨٩ في البحث.

(٥) جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى، ص١٣٢.

(٦) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٨٤.

على ذلك فإننا نستطيع القول أن انهيار النظام الإقطاعي جاء مصحوبا بنشاط تجاري كبير مما أسهم بالتالي في ازدهار الاقتصاد الأوروبي الأمر الذي أدى إلى نشأة الأسواق والمعارض العالمية التي استطاعت أن تستوعب الحركة التجارية النشطة داخل أوروبا.

أما فيما يتعلق بقيام المدن وأثر ذلك على نشأة الأسواق العالمية، فإن فترة الانحلال والاضطرابات التي شهدتها أوروبا منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية أدت إلى ذبول المدن، حيث مثلت الفترة الممتدة فيما بين سنتي ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ تقريبا فترة مظلمة في تاريخ المدن الأوروبية، إذ أن اختفاء الحياة المدنية في أوروبا كان مصحوبا بانحطاط التجارة والصناعة[١]، واقتصر دور المدن الرومانية القديمة، بعدما أصابها من دمار على يد الجرمان، على أن غدت مراكز أسقفية أو مقرا ملكيا، أو مركزا للإدارة فحسب[٢]. بمعنى أن المدن القديمة وإن كانت قد افتقرت إلى الحياة الحضرية الحقيقية إلا أنها ظلت مراكز لكل من الإدارة العامة والإكليروسية[٣]. فقد انتشرت الضياع الإقطاعية وصار حكامها هم المسيطرون على الحياة الاقتصادية التي اقتصرت فقط على الحياة الزراعية ودارت في فلكها بعدما اختفت طبقة التجار ولم تعد قادرة على ممارسة الحياة التجارية والصناعية الحقيقية إلا بالإحياء التجاري وظهور التجار في الحياة الأوروبية مرة أخرى. فهناك احتمال كبير أن الملوك، والكونتات، والأساقفة والسادة العظام الآخرون ممن قاموا بإدارة المدن القديمة والضياع الإقطاعية، كانوا يشجعون مستأجريهم حتى يصبحوا حرفيين متخصصين. فقد كانوا يحتاجون إلى العديد من المصنوعات التي لم يكن إنتاجها ممكنا إلا من قبل الصناع الذين اكتسبوا المهارة بالتدريب والممارسة.

ولذلك فقد ظهر في القرن الحادي عشر مجموعة من الحرفيين كانوا يقدمون

---

(١) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ص٩١، محمد مرسي الشيخ، النظم والحضارة، ص٧٠.

(٢) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ص٨٩،هـ ٠و. ديفز، أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة/ عبدالحميد حمدي محمود، ط١، منشأة المعارف، الاسكندرية، ١٩٥٨م، ص٢٠٩.

(3)Painter, A History of the middle ages, P. 226.

إنتاجهم في مقابل تسديد ما عليهم من إيجارات. على أنه من المحتمل أن يكون هؤلاء الصناع أصلا ينتجون من أجل حاجتهم الشخصية أو حاجات أسيادهم فقط، ويتوقع الشخص أنهم أرادوا أن يبيعوا الفائض من إنتاجهم وعن احتياجات السيد مباشرة[١].

ويتضح من الدراسة أن لكل ضيعة من ضياع السيد الإقطاعي حرفيون متخصصون مثل الحداد وصانع الأسلحة. وإذا كانت الضيعة الإقطاعية مقرا رئيسيا لبارون أو أسقف عظيم، فمن المحتمل أنه كان بها العديد من هؤلاء الحرفيين، وقد كثرت أعداد هذه المراكز وتلاحمت أسوارها مع بعضها البعض كما في الروين Rouen، مما أدى إلى تكوين مستوطنات كبيرة جدا من الحرفيين. وفي حالة تحول الصناع في الضيعة إلى أقنان، يقل إنتاجهم وذلك لأن الملكية وجميع أدواتها تكون خاضعة في الضيعة للسيد الإقطاعي، مما سيجعل هؤلاء الصناع حرفيين أرقاء لا ينتجون إلا ما يحتاجوا إليه فقط لتسديد ما عليهم من التزامات. لأنهم لا يستطيعوا الحصول على قسط من الحرية، بينما يختلف الأمر تماما للذين يمارسون التجارة، فكان هؤلاء يتنقلون بسلعهم من مكان لآخر، لذلك كان لابد أن يكونوا أحرارا لأن القن لا يتمكن من مغادرة أرض سيده. بينما يبدو محتملا أن العديد من التجار الأوائل في شمال غرب أوروبا كانوا يتهربون من القنية[٢]، لأنهم لن يتمكنوا من ممارسة عملهم والحصول على غايتهم دون أن يحصلوا على حريتهم بأي طريقة من الطرق[٣].

هناك من يرى أن عودة ظهور طبقة من التجار المحترفين داخل القارة الأوروبية قد تحقق منذ القرن العاشر حيث تكونوا من مجموع الأفراد الذين زادوا عن حاجة

---

(1)Painter, A History of the middle ages, PP. 226 – 227.

(٢) تمكن هؤلاء من التحرر من خلال هجرهم لأراضي أسيادهم، والفرار إلى أماكن بعيدة هربا من تتبع أسيادهم لهم، رغبة منهم في التحرر من العبودية، رغم أنهم ولدوا من آباء غير أحرار. لذا فقد فروا إلى المدن ليسكنوا فيها بحثا عن حياة جديدة، وحتى يتمتعوا بالأمان، وألا يعادوا ثانية إلى أسيادهم بالقوة، وحتى يتخلصوا من أعمال السخرة. وقد تحقق لهم مطالبهم المشروعة في القرن الثاني عشر بعد وقوع بعض الثورات الخطيرة. عن ذلك انظر: بيرين، تاريخ أوروبا، ص٥٤-٥٥.

(3)Painter, A History of the middle ages, PP. 226 – 227.

الأرض الزراعية لهم، إذ دفع حرمان هذه المجموعة من الأرض إلى أن يؤجروا أنفسهم للعمل في عدد من المهن المختلفة مثل البحارة والحمالين أو العمل في المراكب التجارية. حيث تمكنوا من تحقيق ربح ضئيل حرصوا بمهارتهم وخبرتهم على تنميته[١]، ولكي يحقق هؤلاء نجاحا كان لابد من تحقيق ثلاثة أمور ضرورية تتمثل أولا في توفير قاعدة عمليات استراتيجية تقع على طول الطرق التجارية، بالقرب من الأسواق المحلية، حيث يتوافر بها المخازن وتتمتع بسهولة النقل البري والبحري. وثانيها الأمن المتمثل في شكل الحماية التي تمنحها السلطات المحلية القوية ضد أخطار الحرب أو الاستيلاء بالقوة على ممتلكاتهم من قبل فئات خارج مجتمعهم الإقطاعي حتى أنه قد صدرت القوانين الخاصة بمثل هذه الحماية في القرن الحادي عشر[٢]. وثالثها احتياجهم إلى حرية التحرك والتحرر من القيود وقوانين الإقطاع في المجتمع الريفي. ومتى حقق التجار هذه المتطلبات الثلاثة فسيحققوا غاياتهم، وتزدهر تجارتهم[٣]، لأنه رغم أن التجار كانوا أساسا تجارا جائلين، إلا أنهم أرادوا الحصول على مكان آمن لإقامة عائلاتهم وحفظ متاجرهم. لذلك كان طبيعيا أن ينجذبوا إلى مستوطنات الحرفيين التي تقع قرب قلعة أو كنيسة[٤]. وقد رحب الأمراء المحليون بهؤلاء التجار وسمحوا لهم بالإقامة بجوار حصونهم، نظرا للفائدة التي تعود عليهم من وراء فرض ضرائب على تجارتهم من جهة، وإيجاد نوع من النشاط والحركة في

---

(١) نعيم فرج، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، ط٢،منشورات جامعة دمشق، سوريا، ٢٠٠٠م، ص١١٧.

(٢) تعرض تجار العصور الوسطى آنذاك لخسارة تجارتهم نتيجة للظلم الواقع عليهم من جراء الاستيلاء على بضائعهم من قبل السادة، إذ أن النبلاء أو السادة دائما ما كانوا يقوموا بأخذ البضائع التي تسقط من التجار عند مرورهم عبر أراضيهم، وهو القانون المشابه لقانون حطام السفينة، الذي أعطى الحق في أخذ كل ما على السفن في حالة تحطمها عند شواطئهم. عن ذلك انظر:

- Thompson, Johnson, Medieval Europe., P. 575.
- Cave, Coulson, A Source Book., P. 222.

(3)Hoyt, Chodorow, Europe in the middle ages, PP. 269 – 270.

(4)Painter, A History of the middle ages, P. 227.

المنطقة من جهة أخرى. كان أن أقام التجار في القرن الحادي عشر حظائر مسورة متاخمة لحصون الأمراء، تمتعوا فيها بقسط من الحرية الشخصية لم يتوافر للأقنان في الضياع المجاورة. وهكذا أخذت هذه المجتمعات التجارية تتطور – سواء كانت مرتبطة بإحدى المدن الأسقفية أو خارج سور دير من الأديرة أو بالقرب من بعض الحصون الإقطاعية – لتنشأ منها مدن العصور الوسطى[١].

ولعل ما تعرض له التجار الجائلين من أعمال السلب والنهب واحتياجهم الشديد إلى الأمن هو ما دفعهم إلى البحث عن حماية المدن الحصينة والأبراج التي قامت على مراحل على طول الأنهار والطرق الطبيعية التي كانوا يسافرون عليها. وقد حققت لهم هذه الأماكن ما كانوا يطمعون فيه حيث كانت بمثابة محطات لهم خلال فصل الصيف، ومشاتي خلال فصل الشتاء شديد البرودة. وكانت أفضل الأماكن بالنسبة لهم تلك التي تقع عند دالات مصاب الأنهار أو عند الأودية الضيقة، وعند ملتقى نهرين، أو عند نقطة تتوقف عندها ملاحة النهر والنقل عبره، ولذلك أحب التجار جميعهم سكنى هذه المناطق[٢]. فاستعادت بذلك المدن الرومانية القديمة بعضا من ماضي عظمتها وثروتها، بعد أن ظلت زمنا خالية من أهلها، نتيجة انهيار تجارتها الخارجية، فتطورت القرى إلى مدن مسورة، وانتشرت ضواحي التجار، وأرباب المهن والحرف حول القصور الإقطاعية والقلاع، وظهرت في فرنسا أسماء جديدة مثل فيل نوف (Villeneuve) أي المدينة الجديدة، وسوفيتيه (Sauvete) أي المعقل، وباستيد

---

(١) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ص٩١.

عن نشأة مدن العصور الوسطى انظر:

- Tout (T.F.), Medieval Town – Planning, Manchester, 1917.
- Pirenne (H.), Les villes et les Institution, urbaines, 2 Vols, Paris, 1939.

Munford (L.), The City in History, Its Origins, Its Transformations and Its Prospects, 2. Vols, New York, 1961.

- Pirenne (H.), Medieval Cities, Princeton, 1939.

ممفورد (لويس)، المدينة على مر العصور، أصلها وتطورها ومستقبلها، إشراف ومراجعة وتقديم/ إبراهيم نصحي، جزءان، القاهرة، ١٩٦٤م.

(٢) بيرين، تاريخ أوروبا، ص٤٧.

(Bastide) أي المدينة النموذجية، وهي مسميات تدل على حركة تجمعية لتكوين مدن جديدة، في طول البلاد الفرنسية وعرضها[١].

أما فيما يتعلق بالضواحي والأبراج التي قامت عليها المدن التجارية الوسيطة، فإن أقدمها كانت الأبراج التي مثلت المدينة الحصن Bourg (Borough) الذي يرجع تاريخه إلى العصر الروماني أو العصر الإقطاعي، إذ أقام به مجموعة من رجال الدين والفرسان والخدم والأرقاء، قد عاشوا جميعا على ما يقدمه لهم الفلاحون من منتجات زراعية[٢]. وشكل سكان هذه التحصينات (Burgen) الأعضاء الدائمون للحامية لكن انتعاش التجارة غير بعض سمات الـ Boroughs ، من منشآت عسكرية إلى مراكز تجارية وحضارية. وغالبا وبدون استثناء فإننا نستطيع القول بأن المدن الرومانية السابقة ومدن Boroughs في القرن العاشر، التي ظلت مجرد حصون عسكرية كان ذلك راجعا إلى أنها لم تقع على الطرق التجارية المهمة. أما المدن الواقعة على الطرق فإنها نمت بلا استثناء، وازداد سكانها الذين يعيشون عن طريق التجارة والصناعة أكثر من الذين يعيشون على الزراعة أو حمل السلاح، مثل المدن في انجلترا وألمانيا وفرنسا. ولم تكن المستعمرات التجارية تقع في داخل المنطقة المحصنة أو بين جدرانها، وإنما كانت مجاورة لها[٣].

أما بشأن الضواحي فكانت تقوم على مقربة من القلاع الكبيرة أو في حمى دير كبير أو بجانب مركز الأسقف، كما كانت تقع على طريق رئيسي حتى يتيسر لها سهولة نقل البضائع التي تتجمع عندها[٤]. فقد حدث انتعاش للحياة الحضرية في تلك الضواحي والتجمعات السكنية والمباني خارج قطع الأرض المسورة. إذ في خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، فإن المدن النامية قامت ببناء حوائط

---

(١) هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة/ محمد مصطفى زيادة، السيد الباز العريني، ج١، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٢٢١.

(٢) نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص١١٩.

(3)Hoyt, Chodorow, Europe in the middle ages, PP. 270 – 271.

(٤) نقولا زيادة، عالم العصور الوسطى في أوروبة، ط١، المكتبة العصرية، القدس، فلسطين، ١٩٤٧م، ص١٨٧.

جديدة لتحيط بهذه المناطق الكبيرة. ونفس هذا النمط من النمو كان من مميزات المدن التي وجد أصلها في المستعمرة التجارية المجاورة للدير أو للضيعة الملكية.

تعتبر الحماية التي يوفرها رئيس الدير أو الملك بالإضافة إلى الموقع المتميز دافعا قويا إلى إقامة المستعمرة، وعندما تنمو المدينة الوليدة فإنها تصبح مركزا إقطاعيا أو رهبانيا. وكان يتحقق ذلك تماما عندما يبرهن الملك أو الراهب أو السيد أن الحث على التجارة له أهميته حتى لو لم تكن هي النشاط التقليدي لرعاياه، فإذا أراد هؤلاء منح الحرية لسكان الحضر، كان لابد من إعفائهم من الخدمات العملية وأعباء العمل في الحقول[١]. لذلك فقد قامت إلى جانب المدن والقلاع الإقطاعية مراكز تجارية مكدسة عاش سكانها نوعا من الحياة يختلف تماما عن الحياة التي كان يعيشها الناس داخل المدينة. وعلى هذا فمن الحري القول أن ميلاد مدينة العصور الوسطى، كان على ضواحي الأبراج، أو أن الأبراج هي التي حددت موقعها. وسرعان ما دفع تجمع التجار في مواقع مناسبة، الحرفيين أيضا إلى أن يجتمعوا هناك. ولقد كان الحشد الصناعي في المدن مماثلا في القدم للحشد التجاري. ونستطيع أن نلاحظه ببساطة خاصة في إقليم الفلاندرز Flanders[٢] نظرا إلى أنه كلما توسع النشاط التجاري احتاج الأمر إلى أيدي عاملة من الصناع من أجل حمل البضائع وتفريغها، وإنشاء السفن، وتصنيع العربات، وبما أنه كان من الضروري إمداد هذه الأيدي العاملة بما تحتاج إليه في حياتها، لذا فقد وفدت جماعات الخبازين واللحامين وصانعي البيرة (الجعة) والحائكين وغيرهم. إذ نستطيع القول بأن أي مكان يتم فيه ممارسة التجارة وجد به تكتلات من العمال والتجار وأصحاب المصارف حيث تختلف أهميتهم حسب أهمية المكان الذي يتواجدون به. وكانت هذه الضرورات التجارية مصدرا لنمو المدن[٣].

---

(1)Hoyt, Chodorow, Europe in the middle ages, P. 271.

(٢) بيرين، تاريخ أوروبا، ص ص٤٧، ٤٨.

(٣) نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط في أوروبة،ج١، دار الفكر، دمشق،سوريا، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ص٨٨٥-٨٨٦.

لذا فمن الممكن تلخيص العوامل الرئيسية التي أدت إلى نشأة المدن في العصر الوسيط اعتبارا من القرن الحادي عشر، حتى ازدهار التجارة إلى الإحياء التجاري، وظهور طبقة التجار، وقيام المجتمعات التجارية الأولى. مما يعني أن المدينة الأوروبية مرت بأدوار كبيرة قبل أن تصبح مراكز تجارية وصناعية واضحة المعالم، نظرا لأنها ظلت أمدا بعيدا تصور الطابع العام للمجتمع الزراعي الذي ساد العصور الوسطى[١]. بيد أن الطبقة البرجوازية الناشئة، والعاملة بالتجارة لم يكن يناسبها القيود التي فرضها سادة المدن، والتي كان من شأنها أن تعرقل نشاطهم، مثل فرض الخدمة العسكرية أثناء تنظيم الأسواق، أو جمع ضريبة القطع، كما كادوا ينتزعون من التجار رؤوس أموالهم، ومارسوا أخيرا بعض الحقوق التي عرقلت أعمال المقايضة، كامتياز الشراء بالدين، واستغلال التجار الغرباء، وفرض الرسوم على الصفقات وانتقال البضائع. لذلك فإن النظام السياسي في المدن لم يكن يتناسب مع دورها الاقتصادي. وهو ما سوف يدفع سكان المدن إلى السعي من أجل الحصول من أسيادهم على تعديل تلك القوانين والنظم[٢]. وكان ذلك أمرا طبيعيا نظرا لأن ساكني المدن (البرجوازية الجديدة)، هم مؤسسوا تلك المدن الجديدة حيث قامت من أجلهم وبسببهم. لذا فقد عملوا على تحقيق مصلحتهم الخاصة فقط، لأنهم هم من صنعوا مجتمعات تلك المدن ونظموا اقتصادها[٣]. لذا فقد وجد التجار أنه بالعمل الجماعي فقط يستطيعون الحصول على الامتيازات الضرورية للعمل التجاري، مثل عدم وضعهم في حالة مشابهة لحالة الأقنان، وحرية الانتقال، والإعفاء من رسوم عبور الجسور المبالغ فيها[٤]، والضرائب على المبيعات، ومحاكم خاصة بهم لحاجة التجار لقرارات سريعة لحل النزاعات التجارية، لذا فقد منح العديد من السادة سلطة قضائية لقاطني المدن، حتى أطلق على هذه المحاكم اسم Pied powder (أي أصحاب

---

(١) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ص٩١، جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى، ص٢٢١، عبدالحميد البطريق، تاريخ أوروبا الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، مطابع جامعة الرياض، د.ت، ص٩.

(٢) إدوار بروي، القرون الوسطى، ج٣، ص ص٣٠٥-٣٠٦.

(٣) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٦٢.

(٤) هلستر، أوروبا في العصور الوسطى، ص ص١٦٣-١٦٤.

الأقدام المتربة)، أو محكمة التجار. كما تضمنت مثل هذه الامتيازات منح الحق آليا في ممارسة نوع من التنظيم السياسي[١].

بناء على ذلك فقد أصدر الملوك ورؤساء الأساقفة والأمراء وغيرهم من السادة البراءات أو العهود الإعفائية (Charters) الخاصة بالمدن، في القرن الثاني عشر الميلادي، مع الاختلاف في التفاصيل[٢]. فقد صدرت قوانين خاصة بالحريات لمواطني المدن، مثل قانون الحريات في لندن London، وقد عرف بقوانين إدوار المعترف Edward The Confessor (٤٣٤-٤٥٩هـ/١٠٤٢-١٠٦٦م) [٣]، والتي تمت كتابتها بعد عام ٥٠٩هـ/١١١٥م وقد حددت قوانين معينة لسلوك التجار، ومن المحتمل وقتها أنه لم تكن هناك نقابة للتجار في لندن London، ولكنها كانت قوانين مفصلة مشابهة لتلك القوانين التي وضعتها النقابات في إنجلترا والتي وجدت في القرن الثاني عشر. وقد تم فيها منح امتياز البيع بالتجزئة للتجار المحليين[٤]. كما تضمنت حق حرية المدينة بتوفير السلام لها ولكل التجار الراغبين في القدوم إليها بهدف عقد الصفقات التجارية داخلها، كما اشتملت على كل ما يتعلق بحرية مواطني لندن London[٥]. إذ كانت الحرية هي المطلب الأساسي والضروري للتجار والحرفيين حتى يتمكنوا من حيازة الملكية ويذهبوا أينما يريدون. لذا فعادة ما كان يمنح الدستور هذا الحق للمواطنين من قبل السيد بشرط أن يلتزم كل شخص يعيش في المدينة بالدستور، فيصبح الشخص حرا إذا عاش في المدينة لمدة سنة ويوم. ذلك إذا تمكن من الهرب من بلدته التي يخضع فيها للقنية وأن يهرب من اسر العبودية لمدة سنة ويوم

---

(1)Painter, A History of the middle ages, P. 228.

(٢) فشر، تاريخ أوروبا، ص ص٢٢١-٢٢٢.

(٣) إدوار المعترف Edward The Confessor : هو إدوار المعترف أو التقي ابن الملك أثلبرد وهو آخر الملوك على انجلترا من سلالة ألفرد العظيم، وكان شديد التدين حتى عرف بالمعترف. وبعد وفاته قام وليم الفاتح بفتح انجلترا. عن ذلك انظر: نظير سعداوي، تاريخ انجلترا، ص٥٦.

(4)Liberties of London, in Cave, Coulson, A Source Book; P. 199.
Thorpe (B.), Ancient Laws and Instiutes of England, London, 1840, After – A.D. 1115, P. 462.

ليصير حرا[1]. حتى قيل: "أن هواء المدينة يجلب الحرية"، ولكي نكون أكثر دقة فإن إقامة المرء على هذه الأرض الجديدة (أي المدينة) هي التي حطمت أي روابط شخصية أو إقطاعية تخضعه لسيد خارجي. فكانت المدينة تمنح قاطنيها قانونيا نوعا من الحصانة الإقليمية عن طريق السلطة الحاكمة بها. لذا فإنه من الخطأ تفسير مدينة العصور الوسطى على أن سكانها كانوا جالية متذللة أخذت في التحرر بشكل تدريجي أو فجائي، لكنها كانت تعبير عن حقيقة اجتماعية[2].

كانت الحياة في المدن الإيطالية امتيازا خاصا في القرن الثاني عشر، فلم يكن الجميع يتمتع بها[3].

وقد قام السادة ورؤساء الأساقفة بمنح المدن البراءات متضمنة حقوق الحرية وكافة الامتيازات الأخرى بموجب السلطات المخولة لهم من الملوك[4]. لذا فقد كانت هذه البراءات وأمثالها على جانب كبير من الأهمية للمدن لما تضمنه بعضها من الإعفاء الجمركي وحرية الإبحار بين الموانئ المختلفة وغيرها من الحقوق المهمة[5]. حتى أن المدن حصلت من خلال تلك البراءات على حريات شبه مطلقة، كالبراءة الخاصة لمدينة دونويش Dunwich[6]، عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، من ملك انجلترا حنا John[7] (٥٩٦-٦١٣هـ/١١٩٩-١٢١٦م) والتي لم يكتف فيها بإعفائهم من الضرائب

---

(1)Painter, A History of the middle ages, P. 227.

(2)Stephenson (C.), Medieval History, New York, 1951, P. 246.

(3)Adelson, Medieval, Commerce, P. 72.

(4)Archbishop Thurstan's charter to Beverley, in Stubbs (W.); Select Charters of English Constitutional History, Oxford, 1913, A.D. 1130, PP. 131 – 132.

(5)Charter of Henry I to Rouen, in: Gross (C.), The Gild Merchant, Vol. I, Oxford, 1890, About A.D. 1150, P. 292.

(٦) مدينة دونويش Dunwich : هي بلدة صغيرة شرق Suffolk بانجلترا على ساحل بحر الشمال. عنها انظر :

The New Encyclopaedia, Vol. III, P. 713.

(٧) الملك حنا John : تولى العرش خلفا لأخيه ريتشارد (قلب الأسد) وقد نازعه فيه ابن عمه الأمير آرثر، وهو صبي في الثانية عشر من عمره، وأيده في هذا النزاع بارونات نورمنديا وأنجو وأكويتين =

ورسوم العبور فحسب، وإنما منحهم نفس الحريات الممنوحة لمواطني لندن London، وأن يقوموا بدفع رسومهم القانونية بأيديهم[١].

يتضح لنا أهمية مثل هذه البراءات الممنوحة من السادة للمدن خاصة للتجار حاملي لواء التحرر من كافة القيود التي تعوق نشاطهم، لذا نجدهم يبذلون أقصى جهدهم حتى لا يحاكموا أمام المحاكم الإقطاعية العتيقة. وبناء عليه منحهم الملك حنا John حق عدم رفع دعوى أمام أي محكمة سوى أمام عدالته، كما حدد لهم طريقة التقاضي[٢]. ونظرا لحاجة قاطني المدينة في امتلاك العقارات داخل المدينة نجدهم يسعون للحصول على مثل هذا الحق[٣]، الذي منحهم إياه سادتهم كما سمح لهم حنا John بأن يبيعوا ما يشاءون من أراضيهم وعقاراتهم المملوكة حسب رغبتهم[٤].

أخذت البرجوازية في تشكيل القومونات Communes لأنها لم تكتف بما حصلت عليه من حريات مدنية، وإنما أرادت المشاركة في السلطة السياسية لذا نجد سكان المدن في شمال إيطاليا وشمال فرنسا يناضلون من أجل حرياتهم، وليتمكنوا من ذلك قاموا بتنظيم أنفسهم في وحدات إدارية (قومونات) [٥]. حيث تشكلت هذه القومونات بهدف تحطيم سلطة رئيس الأساقفة[٦]. فقد ظهرت

=

وفيليب أغسطس، ملك فرنسا، مما دفعه إلى الدخول في حروب عدة بعضها داخل الجزر البريطانية والبعض الآخر في القارة، على أن هزيمته في القارة عام ٦١١هـ/١٢١٤م، أدت إلى الثورة ضده حيث أجبر على التوقيع على العهد الأعظم Magne Carte في ٦١٢هـ/ ١٥ يونيو سنة ١٢١٥م. انظر: نظير سعداوي، تاريخ انجلترا، ص ص٩٣-٩٧.

(1)King John's Charter of Privileges to Dunwich, in; Stubbs, Select Charters, (A.D. 1200), P. 308.

(2)Stubbs, Select Charters. (A.D. 1200)., P. 308.

(٣) هلستر، أوروبا في العصور الوسطى، ص١٦٤.

(4)Stubbs, select Charters., (A.D. 1200), P. 308.

(5)Rowling, Everyday life in medieval times, P. 61.

(6)The Cambridge Medieval History, Vol. V, Cambridge, 1948, P. 219.

عن موقف النبلاء من قيام حكومات المدن "القومونات" انظر: هناء بنت محمد بن إبراهيم الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا ودورها التجاري في القرنين السادس والسابع الهجريين

=

القومونات أولا في إيطاليا، وبصورة خاصة في لومبارديا Lombardy، وتوسكانيا Tuscany إذ ظل المفهوم الأساسي للمدينة الدولة قائما هناك، والذي يعني بقاء الوحدة الضرورية للمدينة والبلاد المحيطة بها. فقد حكمت المدينة عادة من قبل أسقفها، وكانت أراضي النبلاء التي تقع حولها تابعة له كذلك. وكان النبلاء بالتأكيد مهتمين بشئون المدينة سواء عاشوا فيها أو في منازلهم الريفية. بينما سلطة الأساقفة العامة قد قويت من قبل أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، الذين اعتمدوا عليهم لتأمين سيادتهم الإمبراطورية. لكن عند نهاية القرن الحادي عشر، نما سكان المدن الرئيسيين وتمردوا على سلطة الكنيسة. لذا فقد شكل التجار والصناع اتحادات لوقف سلطانهم. وعندما يبدأ قومون المدينة في التمرد المسلح، كان الأسقف يقف عاجزا تماما عن مقاومتهم ولم يكن أمامه سوى أن ينصاع لمطالبهم. وقد أخذ الأساقفة يفقدون سلطاتهم السياسية وبدأت القومونات في تكوين حكوماتها الخاصة[١]. على أنه لم تكن جميع القومونات ثورية. ففي عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م شكل مواطنوا أبروشية ليبج Liege حلفا[٢]، للتحاور مع الأسقف للحصول على بعض الاستقلال القضائي والتجاري. وفي هذه الحالة كان (القومون) يعمل على أساس أنه اتحاد مسالم[٣]. حصل على ما يريد بالتفاوض ودفع قدرا من المال في مقابل ذلك. وقد استطاعات القومونات خلال القرن الثاني عشر، الحصول على سلطة كبيرة مكنتها من السيطرة على الجزء

=

الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، رسالة ماجستير، قسم التاريخ، كلية التربية ببريدة، المملكة العربية السعودية ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٢١-١٢٥.

(1)Painter, A History of the middle ages, P. 232.

(٢) فقد كانت المنطقة كلها خاضعة لسلطة رئيس دير ليبج Liege، عن ذلك انظر:

- Agreement between the count of Hainault and the Bishop of Liège, 1076: Gislebert of Mons, Chronicon Hanoniense, ed.L. Vanderkindere (Brusseles, 1904), 13 – 14.

(3)Nicholas (D.), The Evolution of the Medieval World: Society, government and thought in Europe, 312 – 1500, London, 1992, P. 300.

الأعظم من أبروشياتها، وصارت تستطيع مراقبة سير العدالة والسلام بعد ما نالته من نفوذ[1]. قد حصلت بعض المدن على نظام القومونات بالثورة المسلحة ضد حاكمها مثلما حدث في لاءون Laon بشمال فرنسا، حيث ثاروا ضد حكم أسقفهم عام ٥١٠هـ/١١١٦م، ودار بينهم صراع مرير انتهى بقتل الأسقف وقيامهم بتكوين قومون وفق رغبتهم[2]. وقد توالت القومونات منذ أواخر القرن الحادي عشر، في الظهور بفرنسا France والفلاندرز Flanders عندما تكونت بها اتحادات قامت بالثورة على السيد الحاكم، ومع ذلك لم يحققوا إلا نجاحا ضعيفا، ذلك لأن السيد كان عادة يستطيع أن يحشد قوة كافية لقمعهم، لكن الأساقفة نادرا ما استطاعوا القيام بذلك، فقد ساعد على نجاح التمرد ضد الأساقفة أن الملوك والأمراء الإقطاعيين أرادوا تقويض السلطة السياسية للكنيسة لذا فقد قاموا بمساعدة القومونات.

ورغم أن المعنى الأدق لتعبير القومون لابد أن يطلق فقط على المدن التي كونت فيما بينها اتحادا وتمكنت من تحقيق الاستقلال السياسي بالثورة المسلحة، لكن المؤرخين أطلقوه عموما على كل المدن التي نجحت في تحقيق مكاسبها العامة الشاملة، وكذلك المدن التي أجبرت السادة على منحهم سلطات عظيمة مثل التي منحت للقومونات. لكن كل المحاولات لتعريف القومون في معنى واسع – بأنها المدينة المستقلة – فشلت لأن الظروف تفاوتت على نحو كبير من مدينة إلى أخرى، لكن التعميم بالتأكيد أمر ممكن. فقام كل قومون بانتخاب موظفين خاصين به، ولم يعد لنائب السيد أي سلطة داخل أرض القومون سوى بعض الالتزامات الثابتة التي استمرت تدفع للسيد هي عادة ما تكون عبارة عن مبلغ محدد يدفع سنويا والتزام ببعض الخدمة العسكرية[3].

([1])Cam: Med. Hist; Vol. V, P. 224.

([2])Rowling, everyday life in medieval times, PP. 61 – 62, Nicholas, The Evolution of the Medieval; P. 301.

فشر، تاريخ أوروبا، ص٢٢٢.

([3])Painter, A History of the middle ages, P. 234.

=

ونتيجة لما سبق فقد ظهرت المدينة المثالية في العصور الوسطى، والتي شكلت في جوهرها مستوطنة تجارية، حيث عمل سكانها في التجارة وكافة الأنشطة[١]. كما كان هناك اتصال وثيق بين عودة الحياة الحضرية في أوروبا وبين قيام المدن حيث أخذتا في النمو معا. فكان لا يمكن أن يوجد طريقا تجاريا مهما لا تقم عليه مدينة، فكان أن قامت المدن الكبرى على الطرق التجارية[٢]. وبما أن سكان هذه المدن كانوا من الطبقة البرجوازية الجديدة (من التجار والصناع وكافة الحرفيين) لذا فقد سعوا إلى زيادة نشاطهم، ونظرا لاحتياجهم الشديد إلى منفذ طبيعي لتصريف إنتاجهم لذلك أقاموا الأسواق والمعارض، التي أصبحت منفذا مهما لذلك، وبما أن الإحياء التجاري بدأ في المدن لذلك أصبحت هي المكان المثالي والملائم لإقامة مثل هذه الأسواق والمعارض التجارية الكبرى خاصة في المدن ذات المواقع المهمة، مثل الأسواق اللومباردية Lombardy، التي شكلت حلقة الوصل بين منتجات الشرق ومنتجات الغرب على حد سواء، وأسواق شامبني Champagne، والفلاندرز Flanders، التي مثلت حلقة الوصل كذلك بين شمال وجنوب أوروبا. لذا فليس من شك في أن نشأة المدن الأوروبية في العصور الوسطى كان له أثره الواضح على إقامة الأسواق والمعارض التجارية الكبرى.

=

سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص ص١٠٠-١٠٢.

عن الحياة الداخلية في القومونات. انظر:

Imbart de la Tour, Histoire de la Nation Francaise, Tome III, Paris, 1920, PP. 371 – 373.

(1)Stephenson, Medieval History, P. 240.

(2)Stepenson, Medieval History, P. 238.

(٢) العامل الجغرافي :

يلعب العامل الجغرافي دائما دورا رئيسا في انتعاش أي إقليم اقتصاديا، لذا فلا يمكن إغفال الموقع الجغرافي وأهميته في انتعاش التجارة وقيام الأسواق أو المعارض. فقد كان للعامل الجغرافي أثره الواضح في تشكيل أهمية بعض الأقاليم أو المدن وازدهارها التجاري وجعلها مهيأة لإقامة المعارض عبر أراضيها. فقد اكتسبت بعض الأقاليم أهميتها من وقوعها على طرق تجارية رئيسية، أو على بعض البحار والأنهار المهمة كذلك، أو اكتسبت شهرتها من خلال وقوعها قرب بعض أماكن العبادة كالأديرة الشهيرة أو توافر بعض الأماكن المقدسة داخلها مما هيأ لها عامل جذب وحقق لها رواجا اقتصاديا وسياسيا. فقد امتازت فرنسا France، باقتصادها الناجح، نتيجة لموقعها على عدد من الأنهار المهمة، مما ساعدها على إقامة عدد من الأسواق والمعارض الناجحة الأمر الذي جعل التجار يأتون إليها من كل أنحاء أوروبا، فزار التجار الإيطاليون المنطقة حول باريس Paris وتاجروا على طول الأنهار العظيمة كلها من السين Seine[١]، واللوار Loire[٢]، والجارون Garonne[٣]، تلك الأنهار التي صارت أعظم مما كانت عليه منذ أيام الرومان. فظهرت المدن الجديدة، وانتشرت الكنائس العظيمة. وسافر الحجاج من منطقة إلى أخرى لزيارة الأضرحة المشهورة[٤]. مثل المكان المسمى تلال القديس مارتن St.Martin's Hill، والواقع على الطريق المؤدي إلى مدينة

---

(١) السين : هو ثاني أطول نهر في فرنسا، ينبع من منطقة Langres ، بالقرب من Dijon وينحدر عبر باريس باتجاه الشمال الغربي. انظر :

The New Encyclopaedia, Vol. VIIII, P. 34.

(٢) اللوار : يعتبر من أهم أنهار غرب أوروبا بصفة عامة، وأهم أنهار فرنسا بصفة خاصة يبلغ طول مجراه ١٠١٤كم ينبع من جبل جربير دي يونك Gerpier de jonc في نطاق هضبة فرنسا الوسطى. عنه انظر: جودة حسنين جودة، قارة أوروبا دراسات في الجغرافيا الإقليمية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٠م، ص٤٢.

(٣) الجارون : نهر ذو أهمية كبيرة في جنوب غرب فرنسا. عنه انظر :

The New Encyclopaedia, Vol. IV, P. 423.

(4)Adelson, Medieval, Commerce, P. 67.

باريس Paris، حيث شهدت هذه المنطقة إقامة معرض القديس دينس St.Denis ذلك المعرض الذي اكتسب شهرة دينية كبيرة في العصور الوسطى بانتسابه لذلك القديس مما حقق رواجا اقتصاديا كبيرا للمنطقة المقام فيها بصفة عامة وللمعرض بصفة خاصة[١]. فقد كانت المنطقة التي يقع فيها ضريح أحد القديسين تشكل منطقة جذب، مما جعلها تحول إلى مكان مقدس وهيأها لتكون مناطق ملائمة لإقامة المعارض بها. ففي إيطاليا، حيث لم يعن هذا الاسم أكثر من مصطلح جغرافي لشبه جزيرة تضم عددا كبيرا من القوى السياسية والعسكرية والاقتصادية المتنافسة، برزت بشكل خاص المدن التجارية المستقلة، مثل جنوا Genoa وبيزا Pisa والبندقية Venice، وكانت الحاجة لوجود قديسين ومن ثم لرفاتهم أمرا ذو أهمية بالغة لتحديد هوية المدينة إلى جانب استقرارها وازدهارها التجاري[٢].

كما تميزت مدينة باريس Paris بموقع متميز حيث كانت تجاور جزيرة المدينة المعروفة (Ill de France) ولكنها أخذت تمتد على ضفتي السين Seine، حيث كانت جزيرة نوتردام Notre-Dame مساحة خضراء وسط المياه، وقد شكلت الضفة اليمنى مستودعا للتجار الباريسيين المنحدرين من ملاحي السين Seine، حيث جسدت مقدما الأهمية التجارية والاقتصادية في باريس Paris، وهو ما سيصبح صفتها الدائمة في العصور الوسطى المتقدمة[٣]. إذ أصبحت هذه المنطقة مركزا إداريا جديدا لتجارة أهل باريس Paris[٤] مما يظهر أهمية موقعها الذي أضفى عليها رواجا اقتصاديا كبيرا وهو ما انسحب على فرنسا France. ففي شمال السين Seine، كانت تنمو التجارة والأعمال التي لها علاقة مباشرة مع المراكز التجارية للفلاندرز Flanders، وشمال فرنسا France اللتان حظيتا بانطلاقة قوية اعتبارا من القرن الثاني عشر[٥]. فقد ارتبط الجزء الداخلي للفلاندرز Flanders بوسط وجنوب فرنسا France

---

([1]) Potrologiae Cursus Completus, Vol. LXXX, P. 510

([٢]) الأمين أبو سعدة، التوظيف السياسي لرفات القديسين، ص٤١١، ٤١٨-٤١٩.

([٣]) ياسر عبد المعبود، جامعة باريس، ص١٩.

([4])Singman, Dailly Life in medieval و P. 193.

([٥]) ياسر عبد المعبود، جامعة باريس، ص٢٠.

بواسطة سلسلة المعارض التي نمت وتطورت خلال هذه الفترة وكانت تؤدي إلى معارض شامبني Champagne العظيمة في القرن الثاني عشر[١]. قد تمكنت كل مدينة تتمتع بموقع جغرافي متميز من أن تقيم سوقا داخلها، وكانت السلطة هي من تحدد مكان إقامة السوق تبعا لأكثر المدن شهرة، إذ كان كل بلد عليه أن ينظم أسواقه الخاصة به، فكانت أسواق انجلترا تقام في Stourbridge[٢] ، وألمانيا في آكس لاشابيل Lachapell Aix[٣] ، وفرانكفورت Frankfort[٤] ، وكونستانس Constance[٥]، والبلاد المنخفضة في ليل Lille، ومسينا Messine[٦] ، ويبرس Ypres، وبروج Bruges، وقشتالة Castile[٧] في اشبيلية Seville[٨] ، وإيطاليا

---

(1)Adelson, Medieval, Commerce, P. 67.

(٢) Stourbridge : هي كونتية رئيسية في المنطقة الغربية الوسطى من إنجلترا بالقرب من برمنجهام Birmingham. عنها انظر: The New Encyclopaedia, Vol. VIIII, P. 594.

(٣) آكس لاشابيل : مدينة تقع غرب ألمانيا . عنها انظر :
The New Encyclopaedia, Vol. I, P. 169.

(٤) فرانكفورت : تقع في شرق ألمانيا يحدها من الشرق الأودر Oder، فتقع على الضفة الغربية لنهر Oder في مواجهة مدينة Slubice . عنها انظر:
The New Encyclopaedia, Vol. IV, P. 282.

(٥) كونستانس : تقع غرب ألمانيا . انظر : The New Encyclopaedia, Vol. III, P. 98.

(٦) مسينا : مدينة بجزيرة صقلية مستندة إلى الجبال وتطل على البحر في الجهة الجنوبية، مرساها أعجب مراسي البلاد البحرية لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البر. عنها انظر: ابن جبير، الرحلة، دار الشرق العربي، بيروت، ص٢٥٢-٢٥٦.

(٧) قشتالة مدينة بأسبانيا من أكبر الممالك النصرانية، ومن أشهر ملوكها سانشو غرسيه الذي حكم ٤١١هـ/١٠٢١م وسانشو الكبير الذي حكم حتى سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م. انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص١٥٨ حاشية (٣).

(٨) إشبيلية : مدينة بالأندلس وهي أهم قواعدها، ولها أسوار حصينة، وقد بنى عبد الرحمن بن الحكم سور إشبيلية وأحكم بناءها، وتقع على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير. انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص١٥٩ حاشية (٤).

في باري Bari، ولوكا Lucca[١] ، والبندقية Venice[٢]. لذا فإنه يمكن القول بأن العامل الجغرافي لعب دورا مهما في نشأة المدن وتطورها.

لعب نفس الدور في نشأة الأسواق داخل تلك المدن وأسهم في ازدهارها، فقد اكتسبت بعض المدن أهميتها من كونها موانى تطل على البحر مثل البندقية Venice وبيزا Pisa، بينما بعضها الآخر – مثل كريمونا Cremona[٣] – كانت ملتقى عدة روافد مهمة لنهر معين، والبعض الآخر – مثل فيرونا Verona[٤] وسينا Siena[٥] وبولونيا Pologne[٦] – كانت تتحكم في ممرات أو طرق رئيسية[٧].

لم تكن الأهمية التجارية لإيطاليا ظاهرة جديدة. فقد حدث لها تطور لم يسبق له مثيل، مكنها في الواقع من تحقيق مركز متميز في الشمال الغربي[٨]. فهي تقع بين منتصف الطريق بين الشرق والقسطنطينية Constantinople[٩] من جهة والغرب من جهة

---

(١) لوكا : تقع في مقاطعة توسكاني Tuscana (Tuscana) الواقعة شمال وسط إيطاليا، في الوادي الخصيب لنهر Serchio. انظر:

The New Encyclopaedia, Vol. VI. VI, P. 370.

(2) Boissonnade, Life and Work in medieval Europe, P. 170.

(٣) كريمونا : هي عاصمة لإقليم كريمونا Cremona الواقعة بمنطقة لومبارديا في شمال إيطاليا.

The New Encyclopaedia, Vol. III, P. 233.

(٤) فيرونا : عاصمة لإقليم فيرونا Verona، الواقع شمالي إيطاليا، أسفل Monti Lessini عند نهر Adige، غرب البندقية. عنها انظر: The New Encyclopaedia, Vol. X, P. 403.

(٥) سينا : تقع في الشمال الإيطالي بالسهل اللومباردي في منطقة إيطاليا تعرف بـ Siena. عنها انظر: The New Encyclopaedia, Vol. VIIII, P. 188.

(٦) بولونيا : بلدة من بلدان أوروبا الوسطى، يحدها شمالا بحر البلطيق. عنها انظر:

Grande, Encyclopèdie, T. XXVII, P. 147.

(٧) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٩٢.

(8)Stephenson, Medieval History, P. 237.

(٩) تميزت القسطنطينية بموقع متميز إذ أنها تطل على البحرين الأسود والمتوسط، كما أنها تقع على خليج البسفور، الذي يعد واحدا من أشهر موانئ الدنيا وأن له مرفأ رحب، الأمر الذي جعل التجار يأتون إليها من كل جانب. عن ذلك انظر:

Asher (A.), The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, Translated from the original Hebrew Text., New York, 1840, PP. 3 , 20 and 105 – 106.

=

أخرى الأمر الذي شجع مدنها على القيام بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب[١].
فكان للبندقية – على سبيل المثال – تاريخ تجاري وبحري كبير. فهي مدينة ممتدة على المستنقعات والبحيرات. ويكشف موقعها الجغرافي عن عظمتها البحرية والتجارية. فهي متاخمة لبحر الأدرياتيك Adriatic الذي يعد أعظم طريق بحري لتجارة العصور الوسطى. كما تعتبر من أكبر موانى حوض البحر المتوسط، وقد جعلها موقعها هذا تتحكم في مداخل الدولة البيزنطية وبلاد الشرق الإسلامي من جهة البحر، ومداخل أوروبا الوسطى من جهة البر، إلى جانب تحولها إلى قومون ذي كيان اقتصادي وسياسي مستقل، كلها أمور جعلتها تلعب دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، خلال العصور الوسطى[٢].

ومما يدل على مدى أهمية الإقليم التجاري ككل وقيامه بدور الوساطة بين الشرق والغرب، الأمر الذي جعله بمثابة سوق لكل منتجات الجهتين معا وكان ذلك راجعا إلى أهميتها الجغرافية.

وبتفحص التوزيع الجغرافي للأسواق التجارية، يتضح لنا على الفور أن أكثرها شغلا تركز في الغالب حول منتصف الطريق عبر طريق التجارة الكبير الذي يجري من إيطاليا وبروفانس Provins[٣] جنوب فرنسا إلى ساحل الفلاندرز Flanders. وكانت أشهر هذه الأسواق التجارية "أسواق شامبني

=

وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة/حسن حبشي، ج١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩١م، ص١٥٨-١٥٩.

(١) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٩٢.

(٢) عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب (علاقة البندقية بمصر والشام من ١١٠٠-١٤٠٠م)، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٣، ص٣، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية (بحث في النشاط التجاري للجمهوريات الإيطالية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط ق١٣-١٤م)، ص٣٢، جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى، ص٢٣٩.

(٣) بروفانس : مقاطعات من أهم مقاطعات الجنوب الفرنسي شمال جبال البرينييه لها لغتها القومية والتي تختلف عن لغة الشمال الفرنسية وخصائصها الأدبية والعلمية اتصلت ثقافيا وفكريا بمناطق الشمال الأسباني.

Lavisse (E.), Histoiry de France, Paris, 1901, P. 137., see Also, Masson (B.A.), Medieval France, London, 1945, P. 139.

وبري" Fairs of Champagne and Brie قد كان نجاح تلك الأسواق راجعا إلى موقعها الممتاز[١] حيث كانت تقع بين جنوب أوروبا وشمالها مما جعلها تمثل الوساطة بين الجانبين[٢]. كما أن نظرة عامة على الخريطة سوف تظهر كذلك، كيف عملت الفلاندرز Flanders كموقع مركزي للطرق العظيمة في القرن الحادي عشر. فقد جلبت السلع برا وبحرا من خلال وسط فرنسا France، وأسفل الراين Rhine، وغربا من البلطيق Baltic أو شرقا من الجزر البريطانية، الأمر الذي جعلها مركزا عظيما للثروة، ومنح حكامها قوة هائلة. بينما احتلت المنطقة الشمالية أهمية ثانوية في بيكاردي Picardy[٣] ، ونورماندیا Normandy[٤] ، ووادي الراين الأوسط، وجزيرة فرنسا ill – de – Franc. وظلت وسط فرنسا متأخرة، عن مدنها الواقعة على البحر الأبيض المتوسط، والتي تحتل موقعا مميزا بين إسبانيا Spain، وإيطاليا مما أدى إلى ازدهار البلدين الأخيرين[٥]. مما يعني أن الموقع الجغرافي قد يعزز بعض المناطق ويمدها بالقوة، وفي بعض الأحيان الأخرى يأتي هذا الموقع بنتيجة عكسية تماما.

كان للعامل الجغرافي أثر واضح في اختيار المكان الملائم لإقامة المعارض التجارية الكبرى، مثلما حدث في آكس لاشابيل Aix-la-Chapelle (آخن Aachen) عندما قام الإمبراطور

---

(١) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٠٠.

(٢) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص١١١.

(٣) بيكاردي Picardy : تقع بمنطقة شمال فرنسا بين نورماندیا وNetherlands وشمال جزيرة فرنسا Ile-de-France وشامبني. عنها انظر: The New Encyclopaedia; Vol. VII, P. 987.

(٤) نورماندیا Normandy : تقع نورماندیا في شمال غرب فرنسا، ويرجع تسميتها بذلك إلى أوائل القرن العاشر الميلادي، عندما استقر النورمان في هذه المنطقة الواسعة بشمال غرب فرنسا إذ أعطوها اسمهم Normans، المحرف من كلمة Northmen فعرفت منذ ذلك بنورماندیا. عن ذلك انظر: سميرة يونس، النورمان والدولة البيزنطية، ص١٤. ولمزيد من التفاصيل انظر:
Haskins (H.), The Normans in European History, New York, 1966.

(5)Stephenson, Medieval History, PP. 237 – 238.

فردريك بربروسا Fredrick Barbarossa[1] (٥٤٧-٥٨٦هـ/ ١١٥٢-١١٩٠م) بإقامة معرضين فيها في عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م، وحرص على اختيارها لموقعها المتميز، حتى تحقق شهرة عالمية حيث كانت آخن Aachen، تتميز بكونها موقعا ملكيا، بسبب المجد الذي تمتعت به من ناحية، ولأنها كانت بمثابة المقر المقدس للامبراطور شارلمان Charlemagne، الأمر الذي كان وحده كافيا وحاسما لتفضيلها، إلى جانب أنها كانت بمثابة المقر الملكي حيث توج فيه الكثير من الأباطرة الرومان الأوائل، لذا فقد كانت تفوق كل المقاطعات والمدن في تميزها التاريخي والسياسي وبناء على ذلك وافق الإمبراطور على منح المدينة حق إقامة المعرضين مثل الملوك السابقين، واستجابة إلى نصيحة التجار، وحتى تكون معارض آخن Aachen ذائعة الصيت[2].

يتضح لنا من كل ما سبق أن العامل الجغرافي قد تحكم بصورة كبيرة في إقامة المعارض التجارية الكبرى التي أخذت تحقق شهرة عالمية ورواجا اقتصاديا وتجاريا غير مسبوق للمناطق التي أقيمت فيها.

---

(١)

ف

ر

دريك بربروسا : ابن أخ كونراد الثالث، تولى الحكم في الثلاثين من عمره عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م، قد امتاز بالشجاعة والفصاحة والكبرياء، مع إيمانه المطلق بعظمة الإمبراطورية وسموها. عنه انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص ص٣٧١-٣٧٥.

(2)Menadier (J.), Die Aachener Munzen, Berlin, 1913, A.D. 1166, P. 58.
Menadier (J.), "Urkunden und Akten zur Aachener Munzgeschte", Zeitschrift Fur Numismatik, XXXI, 1914, PP. 275 – 276.

(٣) الحروب الصليبية على بلدان العالم الإسلامي شرقا وغربا :

لعبت الحروب الصليبية على بلدان العالم الإسلامي شرقا وغربا دورا بارزا ومهما جدا في انتعاش التجارة والصناعة الأوروبية الأمر الذي ترتب عليه ازدهار أسواقها التجارية أيضا. فقد التقى عالمان على النقيض تماما في مستواهما الحضاري، فكان العالم الإسلامي قد ارتقى إلى قمة النضوج الحضاري، بينما كان العالم الغربي يحاول أن يصحو من غفوته ليلحق بركب التطور الحضاري، لذا فقد كانت الحروب الصليبية حافزا للتطور الذي شهدته أوروبا منذ القرن الثاني عشر. فإذا كانت حركات الإحياء التجاري، وازدهار الصناعة، وتوقف الهجوم المسلح على بلاد أوروبا، وزيادة السكان، قد أدى إلى تغير أوضاع أوروبا عامة، إلا أن الحملة الصليبية الأولى، يمكن التعبير النهائي عنها بأنها كانت وراء النشاط التجاري في البحر المتوسط، وفتحت المجال لنشاط واسع في عالم العصور الوسطى[١].

فقد أدت هذه الحملات الصليبية إلى زيادة ثروات جميع الموانئ الإيطالية، والأوروبية، وحركت مشاريعها وأسهمت في توسيع الأفق العقلي لكل أوروبا، ورغم أن التجارة كانت قائمة على قدم وساق بين الجمهوريات البحرية وبين العالم الإسلامي قبل الحروب الصليبية، لكن قيام هذه الحروب ساعد على نمو وازدهار هذه التجارة[٢]. وإذا كانت العلاقات بين الشرق والغرب في ظل الحروب الصليبية تعتبر علاقات عدائية حربية، لكن ظلت هناك علاقات سلمية تمثلت في مجالي التجارة والثقافة[٣]. نظرا لأن الصراع الذي دار بين الطرفين دائما ما أخرجه عن مجراه مسائل ذات أهمية اقتصادية. إذ كان لقيام مستعمرات الفرنج في منطقة اشتهرت بخصوبتها، بل من المحقق أنها تحكمت في بعض الطرق التي تعتبر من أهم الطرق التجارية في العالم، مما جعل مطامع المستعمرين وحلفائهم المالية والتجارية تتعارض مع الحماس الديني، الأمر الذي دفعهم إلى إقامة علاقات صداقة مع جيرانهم

---

(1)Adelson, Medieval, Commerce, P. 68.

(2)Cam. Med. Hist; Vol.5, PP. 226, 239.

(٣) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٥٨.

المسلمين[1]. وقد كان هدف الأعداد الكبيرة من التجار الذين أسهموا في تلك الحروب، سواء كانوا من تجار المدن الإيطالية أو الفرنسية أو الأسبانية وغيرهم، استغلالي بحت نظرا للكسب الكبير الذي سيعود عليهم من فرض سيطرتهم على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصدرا للثراء الواسع للمشتغلين بها. فإن احتلال مصر وبلاد الشام والشمال الأفريقي حيث تنتهي الطرق البرية الرئيسية للسلع الشرقية هو حجر الزاوية في السيطرة على تجارة هذه السلع. لذلك قامت أساطيلهم بدور فاعل في الاستيلاء على المراكز التجارية الرئيسية في بلاد الشام فساعد الجنوية الفرنج في الاستيلاء على أنطاكية عام ٤٩١هـ/١٠٩٧م. وكان هدف هذه الجاليات الأول والأخير هو الكسب المادي والمنفعة الاقتصادية ولم يكن يعنيها الباعث الديني إلا بالقدر الذي يحقق مصالحها[2]. كما ساعدت سفن الجنويين في عام ٤٩٥هـ/ ١١٠١م في الاستيلاء على ميناء قيسارية[3] ، الواقع إلى شمال يافا[4]، في الأرض المقدسة ذلك الميناء الذي كان ذا أهمية بالغة منذ زمن الرومان قد حصلوا على نصيب كبير من الغنيمة مقابل ذلك[5]، فجنبوا العشر والخمس للسفن ولكن كل ما تبقى تم تقسيمه على الثمانية ألف

---

(1) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة/ السيد الباز العريني،ج٣، ط٣، بيروت، ١٩٩٣م، ص٥٩٩.

عن العوامل التي حتمت قيام علاقات سلمية بين الطرفين انظر:

علي السيد محمود، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ص١٢-٣٣.

(2) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى،ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧، ص ص٧٨-٨٨، عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ص١٩-٢٠، علية عبد السميع الجنزوري، الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٤٩، جوزيف نسيم، تاريخ العصور الوسطى، ص٢٤١.

Valentin, Histoire de Venise, N, D,P. 187.

(3) ميناء قيسارية : بفلسطين .

(4) يافا : بفلسطين .

(5) Adelson, Medieval, Commerce, P. 74.

رجل، فأعطوا ثمانية وأربعين صولدي Solidi واثنين رطل فلفل[١]، لكل واحد كنصيب لمشاركته، كل هذا بصرف النظر عن نصيب القناصل وربابنة السفن وغيرهم من الذين يمثلون مكانة مهمة[٢]. ولعل أمر إعطاء المشاركين في هذا العمل بجانب العملات، نصيبا من الفلفل يعطي لنا صورة واضحة عن أهمية التوابل لأوروبا العصور الوسطى حيث كانت تشكل أهم الواردات إليهم[٣]. وقد بينت سجلات جنوة Genoa المبكرة أنه بعد عدة عقود وبعد الاستيلاء على قيسارية، كان للجنوية دور مباشر أو غير مباشر في التجارة الشرقية. فنرى ضمن الشخصيات البارزة أحفاد قادة جنوة Genoa من الحملة الصليبية الأولى والأغنياء الجدد الذين برزت أسماؤهم فيما بعد، حيث أمدتهم الحروب الصليبية برؤوس الأموال والخبرة فقاموا بالاستثمارات التجارية في التوابل والعملات وغيرها نتيجة لمشاركتهم في الاستيلاء على قيسارية والمدن الإسلامية الأخرى[٤]. مما يعني أن ازدياد النشاط التجاري بين الغرب والشرق زمن الحروب الصليبية أدى إلى انتعاش كثير من المدن الأوروبية التي أسهمت في ذلك النشاط، مثل أمالفي Amalfi ومرسيليا Marseilles[٥] ، ونـاربون

---

(١) الرطل : يساوي الرطل ١٢ أوقية، ويساوي كذلك ١٠٠/١ من القنطار. انظر: فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة/ كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠م، ص٣٠.

كان للفلفل قوة شرائية داخل أوروبا في العصور الوسطى. عن ذلك انظر: نعيم زكي فهمي،طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرب والغرب (أواخر العصور الوسطى)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٩٩.

(2) Genoa, II0I: in; Lopez, Raymond, Medieval Trade; P. 89.

(٣) عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م، ص٢٢٥.

(4)Lopez, Roymond, Medieval trade, P. 88.

(٥) مارسيليا : عاصمة لإقليم Bouches-du-Rhone تقع على خليج Lion، وتعتبر المدينة الكبرى الثانية والميناء الرئيسي للمنطقة. عنها انظر:

The New Encyclopaedia, Vol. VI, P. 645.

Narbonne[1] ، وبرشلونة Barcelona[2] ، فضلا عن الثلاثة الكبار البندقية Venice، وجنوا Genoa، وبيزا Pisa إذ أدت حركة البضائع القادمة من الشرق إلى موانئ جنوب أوروبا ومنها إلى وسط القارة وغربها، إلى نشاط تجاري كبير في إقليم الفلاندرز Flanders وحوض الراين Rhine وشامبني Champagne فضلا عن سهول لومبارديا Lombardy[3] ، مما نتج عنه ازدهار الأسواق الأوروبية.

فقد عمل الصليبيون منذ أن استولوا على موانئ الساحل الشرقي للبحر المتوسط خلال فترة النمو والتوسع التي أعقبت نجاح الحملة الأولى، على استخدام هذه الموانئ من الناحيتين العسكرية والتجارية معا. وكانت عكا هي أهم موانئ التجارة العالمية والداخلية في بلاد الشام طوال تلك الفترة[4]. فقد أدرك ذلك جميع الرحالة والجغرافيون العرب الذين سافروا إلى تلك البلاد في ذلك العصر لذا فقد أوردوا وصفا لها ولتجارتها في كتاباتهم.

ومن هؤلاء الرحالة ابن جبير حيث ذكر عنها أنها "قاعدة مدن الإفرنج بالشام، ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمتها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق"[5].

كما تناولها الإدريسي أيضا، وهو أحد أشهر جغرافيي المسلمين في العصور الوسطى، بالوصف حيث وصفها بأنها مدينة كبيرة ذات أرجاء متسعة، وضياعها

---

(1) ناربون : مدينة من مدن الجنوب الفرنسي تقع في مقاطعة تولوز على حدود البرينيه. انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٦١ حاشية (٤).

(2) برشلونة : هي المدينة الرئيسة في منطقة قطالونيا، شمال شرق أسبانيا. عنها انظر:
The New Encyclopaedia, Vol. I, P. 811.

(3) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ص١٠٠٩-١٠١٠.

(4) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (الأيديولوجية – الدوافع – النتائج)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص٢١٤.

(5) الرحلة، طبع بمدينة ليدن، بمطبعة بريل، ١٩٠٧م، ص٣٠٣.

كثيرة، ولها ميناء مأمون من ناحية رسو السفن فيه[١]، ونظرا لإدراكه لطبيعة تلك المدينة الساحلية التجارية، وهي من المدن الصليبية الرئيسية على الساحل، لذا فقد وجد بها جنسيات متعددة تعبيرا عن طبيعة الوجود الصليبي ذاته ببلاد الشام، حيث تكون من جنسيات مختلفة شملت الإيطاليين، الفرنج، والإنجليز، والألمان، والدانماركيين، والروس وغيرهم كثيرون، وإدراكا من ذلك الجغرافي لطبيعة البنية السكانية غير المتجانسة لتلك المدينة الخاضعة للسيادة الصليبية نجده يذكر بأن "أهلها أخلاط وأناس شتى" وهو تعبير صادق عن وصفها الديموغرافي[٢].

ولم يقتصر أمر وصف مدن الساحل الشامي، بما فيها عكا، على الرحالة العرب فحسب، بل إن الرحالة الصليبيين الذين مروا بهذه البقاع وصفوها وبينوا مدى أهميتها الاقتصادية، ومن هؤلاء الرحالة فتيلوس Fetellus (٥١٢-٥٢٥هـ/١١١٨-١١٣٠م) [٣] حيث قال عن مينائها أنه يصل إليه أكبر عدد من السفن (مما يأتي إلى أي ميناء)، يقع على ساحل البحر العائد للفرنجة والممتد من عسقلان[٤]، إلى جبال طوروس، وإليها تتدفق بضائع وحاجيات آسيا وأوروبا وأفريقيا[٥]. الأمر الذي يدل على الطابع

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ق٣،ج٥، ص٣٦٥.

(٢) محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ص٢٣-٢٤.

(٣) يعد فتيلوس أحد الرحالة الأوربيين في العصور الوسطى، خلال القرن الثاني عشر الميلادي، حيث شد الرحال إلى الأماكن المقدسة لدى المسيحيين في فلسطين. على أن المعلومات المتوفرة عنه قليلة إذ هناك من يشير إلى أنه عمل رئيسا للشمامسة في أنطاكية، وقد قام برحلته خلال تلك المرحلة من ١١١٨-١١٣٠م حيث زار مناطق مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد الملك بلدوين الثاني، ويتضح من رحلته أنه امتاز بقوة الملاحظة، مما أعطى لرحلته أهمية خاصة على المستويات الحربية والسياسية والاقتصادية. عن ذلك انظر: محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى (نماذج مختارة)، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٢٥.

(٤) عسقلان : بجنوب فلسطين.

(٥) سهيل زكار، الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية، الحملة الصليبية الثالثة، ج٣١، دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص٣٨٤.

الدولي للميناء المذكور باعتباره الميناء الرئيسي لمملكة الصليبيين في ذلك العصر[١].

على أن التجارة العالمية في المناطق الصليبية لم تقتصر على عكا بطبيعة الحال، فقد كانت مدينة صور مدينة تجارية هامة جاءت بعد عكا في مكانتها التجارية[٢]. لذا نجد ابن جبير يصفها ويعقد مقارنة بينها وبين عكا حيث يذكر أنها "أنظف من عكة سككا وشوارع، وأهلها ألين...، ومنازلهم أوسع وأفسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن وعكة أكبر، وأطغى، وأكفر"[٣]. كما أنه وصف حصانتها ومنعتها[٤]، وهو أمر على جانب كبير من الأهمية لتلك المدينة، كما أنه أدرك أهمية تلك المدينة لذا نجده يورد وصفا لمينائها وطريقة رسو السفن فيها[٥]. وليس من شك في أهمية تلك الموانئ في رسو السفن الصليبية بها وعودتها محملة بكل خيرات الشرق الأمر الذي أسهم في ازدهار أسواقها. ولم يقتصر الصليبيون على الاستيلاء على عكا وصور وإنما استولوا على عدد آخر من المدن الساحلية التي كان لها دور كبير في الانتعاش التجاري الحادث لهم. فقد لعبت كل من طرابلس وبيروت[٦]، واللاذقية، وصيدا دورا مهما في

---

(١) محمد مؤنس، الرحالة الأوربيون في العصور الوسطى، ص٢٧.

(٢) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص٢١٤.

(٣) الرحلة، ص٣٠٤.

(٤) إذ قال: "أما حصانتها ومنعتها فأعجب ما يحدث به وذلك أنها راجعة إلى بابين أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة فالذي في البر يفضي إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء...". انظر: الرحلة، ص ص٣٠٤-٣٠٥.

(٥) فقد أورد وصفا لمينائي صور وعكا حيث ذكر: "ليس في البلاد البحرية أعجب وصفا منها يحيط بها سور المدينة من ثلاث جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص فالسفن تدخل تحت السور وترسى فيها وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال لمراكب إلا عند إزالتها وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ولعكة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنما ترسى خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها فالصورية أكمل وأجمل وأحفل". عن ذلك انظر: ابن جبير، الرحلة، ص٣٠٥.

(٦) قد أشار فتيلوس في رحلته إليها بقوله: "مدينة بيروت، هي مدينة غنية جدا"، لذا فوصفه إياها بالثراء والغنى يعكس مدى أهمية الدور الذي لعبته في التجارة بين الشرق والغرب آنذاك. عن ذلك انظر: سهيل زكار، الموسوعة الشامية، ج٣١، ص٣٨٥، محمد مؤنس، الرحالة الأوربيون، ص٢٧.

الانتعاش التجاري للكيان الصليبي، كما وجدت في كل منها جالية إيطالية كبيرة. وقد لعب الإيطاليون دورا مهما في تنشيط الصادرات والواردات بفضل الحريات والمزايا الكبيرة التي تمتعوا بها في سائر المدن الصليبية[١]. فلقد طلب تجار مدينة جنوة Genoa وبيزا Pisa والبندقية Venice جملة من التنازلات والامتيازات داخل الشرق اللاتيني، وحصلوا عليها، لكن لم يترتب عليها بالضرورة انتفاع تام على الفوز بل ولا يبدو أنهم حصلوا دائما وبشكل فعلي على الأرض والأحياء التي تم تسليمها لهم. أضف إلى ذلك أن هذا التسليم كان يقوم على أساس خريطة اقتصادية كان للغزو الفرنجي بالتحديد دخل في تعديلها[٢]. بيد أن هذه الجنسيات التي كان هدفها الأول والأخير هو الكسب لم تكن لتتنازل عن مكاسبها بسهولة أو أن ترضخ لأي ضغوط، حيث لم يكن غايتهم شراء سلع الشرق لأنفسهم داخل مجتمعهم الصليبي بالشام، وإنما كان هدفهم نقلها إلى بلادهم للإتجار فيها والربح من ورائها. ولم يكن التجار وحدهم هم من مارسوا تلك العمليات التجارية بل إن بعض رجال الدين شاركوا في أعمال البيع والشراء أيضا[٣].

الأمر الذي يظهر مدى أهمية تلك التجارة للطرفين معا برغم ما كان يقع بينهما من قتال، وهو ما لا حظه الرحالة ابن جبير من أن قوافل التجار تنتقل بين الجانبين دون اعتراض رغم الحرب الدائرة[٤]. ذلك لأن التجارة الشرقية شكلت للصليبيين عموما وللإيطاليين بوجه خاص مصدرا مهما للثراء الأمر الذي دفعهم منذ بسطوا سيطرتهم على تلك البلاد أن يحصلوا على ثرواتها مثل قصب السكر الذي حصلوا عليه من صور ذات الضياع الزراعية الواسعة. ولعل هذا النبات هو

---

(١) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص٢١٤.

(٢) كلود كاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة/ أحمد الشيخ، ط١، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م، ص١٤٣.

(٣) علي السيد علي، العلاقات الاقتصادية، ص٨٩.

(٤) الرحلة، ص ص٢٨٧-٢٨٨.

ما أطفأ الظمأ في حلوق جيوش الحملة الصليبية الأولى[١]، حيث يذكر أن معظم ما كان يستهلك من السكر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر جاء من بلاد الشام ومصر، إذ كان الغرب يفتقر إليه في ذلك الوقت، إلا أنه من الجدير بالذكر أن البندقية Venice أصبحت بعد ذلك من أهم البلاد التي تفوقت في هذه الصناعة[٢]. كما حصلوا على الذهب المستورد من السودان الذي سمح لهم بتطوير مشاريعهم[٣]. إذ مكنتهم هذه الحروب من إقامة مستودعات تجارية لهم في الشرق – كعكا وغيرها – مما مكنهم من اتخاذها مركزا لنقل تجارة الشرق الأدنى إلى الغرب الأوروبي[٤]. حيث شهدت المدن الأوروبية إقامة أسواق تجارية عالمية كانت تتوق إلى سلع الشرق التي حملها تجارهم الصليبيين إليها ليحققوا لتلك الأسواق رواجا تجاريا غير مسبوق وليطفئوا ظمأ الغرب المتعطش لمنتجات الشرقين معا. لذا فإن السفن التجارية الإيطالية كانت تبحر إلى موانئ المستعمرات الصليبية لتحمل بسلع ومنتجات الشرقيين وكانت لها مواعيد محددة، فكانت البندقية Venice على سبيل المثال، تأتي إلى تلك الموانئ في موعدين سنويا، هما رحلة شهر مايو والثانية في شهر سبتمبر. وكانت جميع سفن القافلة الموسمية تعجز عن نقل جميع كميات السلع والتوابل المعدة للتصدير إلى أوروبا، لذلك كانت تسبقها عادة إلى موانى الشام سفينة تعرف بالكوكا Coca[٥]، ليحمل

---

(١) د. آجيوس، ر. هيتشكوك، التأثير العربي في أوروبا العصور الوسطى، ترجمة/ قاسم عبده قاسم، ط١، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٢٠.

(٢) عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ص٢٥٥-٢٥٦.

(٣) ب. عزيمان، م. باكو وغيرهم، أوروبا من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر، ترجمة/ أنطوان. أ. الهاشم، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، ١٩٩٥م، ص٣٩٠.

(٤) أ. باركر، الحروب الصليبية، ترجمة/ السيد الباز العريني، ط٤، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م، ص١٤٥.

(٥) الكوكا : كلمة إيطالية قديمة تعني نوعا من السفن شاع استخدامه في إيطاليا في العصور الوسطى، وحرفت فيما بعد إلى لفظ "ككم" الذي أطلق على السفن التي تأتي من الصين. عن ذلك انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٣٠، حاشية (٣٧). لمزيد من التفاصيل انظر: درويش النخيلي، السفن على حروف المعجم، الاسكندرية، ١٩٧٠م.

عليها ما يفيض من شحن القافلة الموسمية، أما إذا تبقى بعد رحيل القافلة والكوكا Coca أي كمية من السلع والتوابل، فإن البندقية Venice كانت ترسل سفينة خاصة تقوم من البندقية أو إحدى محطاتها التجارية في البحر المتوسط من أجل نقلها[١].

لعل ذلك يظهر غزارة ما حمله الغرب إلى بلادهم من منتجات أسهمت في تحقيق الرواج التجاري داخل أوروبا، كما ساعد في ازدهار نشاط أسواقها أيضا. لذلك ونظرا للثراء العائد على تجار الغرب من متاجرتهم مع المسلمين، وعلى رأس هؤلاء البنادقة، نجدهم لا يستجيبون لقرارات البابوية الخاصة بحظر التعامل مع المسلمين وتحريمه متخذين شعارهم "لنكن أولا بنادقة ثم بعد ذلك مسيحيون" Siams Veneziani poi christiani[٢] ، إلا أنه ليس من شك في أن تجارة البندقية في البحر المتوسط تأثرت نتيجة لهذا الخطر البابوي الذي أعلنه البابا جريجوري الثامن Gregory VIII (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) [٣] ومن بعده البابا أنوسنت الثالث Innocent III[٤] (٥٩٥-٦١٣هـ/١١٩٨-١٢١٦م) ، حيث قرروا ألا يكون هناك أي اتصال سلمي بين المسيحيين والمسلمين، وحاولوا منع كل أنواع التجارة القائمة بينهم[٥].

---

(١) حاتم عبد الرحمن الطحاوي، الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام، ص٩٠.

(٢) صبحي لبيب، سياسة مصر التجارية في عصري الأيوبيين والمماليك، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلة التاريخية المصرية، المجلدان ٢٨، ٢٩، عام ١٩٨١-١٩٨٢م، ص١٢٦، جوزيف نسيم، العرب والروم، ص ص٨٩-٩٠، عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٥.

(٣) البابا جريجوري الثامن: تولى خلفا للبابا أوروبان الثالث، بعد وفاته عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م. انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٣٨٦.

(٤) البابا أنوسنت الثالث : تولى البابوية عام ٥٩٥هـ/١١٩٨م. اتصف بقوة الشخصية. عنه انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا،ج١، ص٣٩٠-٣٩١، عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص٨٨.

(5)A Papal License to trade with the Saracens, in, Cave, Coulson, A Source Book; P. 104.

بناء عليه أصدر البابا أنوسنت الثالث مرسومًا إلى شعب البندقية Venice يعلمهم فيه بموقفه من هذه المسألة، وضرورة أن يوقف البنادقة كافة تعاملاتهم التجارية مع المسلمين[١]. وهو ما أصاب البنادقة ببعض الخسائر وجعلهم عرضه لأن يفقدوا مكاسبهم التي حققوها في الشرق من خلال متاجرتهم مع المسلمين وما جلبوه من سلع الشرق أو ما أمدوا به الشرق من الغرب، لذا نجدهم يلتمسون من البابا أنوسنت الثالث الموافقة على المتاجرة مع المسلمين نظرا لما أصابهم من ضرر لأن مدينتهم ليست متخصصة في الزراعة وإنما في أعمال الشحن والتجارة، وبناء على ذلك فقد وافق البابا على السماح لهم بالمتاجرة مع المسلمين مع حظر إعطائهم أو التبادل معهم في الحديد والقار والدعامات والحبال والأسلحة والخوذ والسفن والألواح والخشب المصنع، أما دون ذلك فيسمح لهم بممارسة البيع والشراء فيه[٢].

مما يعني أهمية ما مثلته التجارة مع الشرق للصليبيين، وأنها فاقت كل شئ حتى المسيحية والصليب وأن هذه التجارة أحدثت تغيرا شاملا في الغرب الأوروبي جعل البعض يقرر بأن "زيت التجارة أضاء نور الحضارة" وهو قول تؤكده وقائع التاريخ الأوروبي ذاتها واتصاله بالشرق خلال تلك المرحلة[٣]. ومن هنا جاء القول بأن التجارة سارت وراء الصليب أو لعل التجارة هي التي قادت الصليبيين إلى بلاد الشام[٤]. لذا فقد رأى البعض أنه من المناسب التقديم لقصة عالم العصور الوسطى المتسع بوصفه صحيفة في كراسة حساب إيطالية عنوانها "باسم الله وباسم الربح"!

إذ في بداية الأمر كانت الأسواق الكبرى في حوض البحر المتوسط هي الهدف المنشود. ويمكن فهم مدى تأثير هذه الأسواق على المعاصرين من خلال فقرة نقتبسها

---

(1)Thatcher (O.J.), A Source Book for Medieval History, New York, 1905, P. 123.

(2)Migne (J.P.), Patrologiae Cursus Completus, Vol. CCXIV, Paris, 1955, (A.D. 1198), P. 493.

(٣) محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية (العلاقات بين الشرق والغرب)، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٩-٢٠٠٠م، ص٣٦٢.

(٤) محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٥م، ص٣٤٧.

من وليم الصوري مؤرخ الحروب الصليبية الكبيرة إذ يقول: "للاسكندرية شهرتها حيث إنها تستقبل عددا من البضائع من كل شكل أكثر مما يرد إلى أي مدينة أخرى. فكل ما يفتقر إليه عالمنا من التوابل، والجواهر والكنوز الشرقية والبضائع الأجنبية كان يرد إلى الاسكندرية من الهندين وسابا وبلاد العرب بل ومن أثيوبيا ومن فارس وغيرها من البقاع القريبة. وهكذا فإن جماهير الناس من الشرق والغرب تتجمع هناك. ويجعلون من الاسكندرية سوقا عامة للشرق والغرب[١].

على أنه لم يكن التجار الإيطاليين وحدهم هم من قاموا على تلك التجارة بل إن كل من برشلونة Barcelone ، ونـاربون Narbonne ، ومونبليه Montpellier ، وآرال Arles ، وسانت جيل Saint- Gilles ، ومارسيليا Marseilles قد قاموا بنفس الدور[٢]. فقد زادت ثروات مارسيليا Marseilles ، وبرشلونة Barcelone على سبيل المثال، من وراء الحروب الصليبية والإتجار مع الشرق وقد نمت ثروات عائلات كثيرة داخلها من تمويل هذه التجارة. وكانت الملاحة مرتبطة بالربيع والصيف حيث كثرت الملاحة في هذه الأوقات بنسب كبيرة[٣]. حتى أن تكاليف الشحن المرتفعة والاختلاف حولها ورفع شكاوى إلى القضاة بخصوص ذلك الأمر لم يعق الإبحار أو تلك التجارة[٤]. وليس من شك في أن تلك التجارة الناتجة عن الحروب الصليبية وما صاحبها من ثراء لكافة المدن الأوروبية التي شاركت فيها نتج عن احتكاك الغرب بالشرق وتأثير هذا الأخير بحضارته في الأول خاصة في مجال التجارة فقد وجد إلى اليوم في معاجم لغات غرب أوروبا ألفاظ عربية عديدة، مما يعتبر دليلا قائما على أثر الحروب الصليبية، كالألفاظ المتعلقة بالتجارة البحرية، مثل

---

(١) يوشع براور، عالم الصليبيين، ترجمة/ قاسم عبده قاسم، ومحمد خليفة حسن،ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص١٧١.

(2)Boissonnade, life and work in medieval Europe, P. 175.

(3)Cave, Coulson, A Source Book, P. 157.

(4)Blancard (L.), Documents Inédits sur le commerce de Marseille au Moyen Age, Vol.I, Marseilles, 1884, (A.D. 1248, P. 29).

تعريفة Tariff، والسخرة Corvette[1]. كما أن هناك من الكلمات ما استوحوها من الشرق، مثل السكر Suger، والقطن Cotton وغيرها من الألفاظ[2].

وبذلك نرى كيف لعبت الحروب الصليبية دورا كبيرا في ظهور الأسواق العالمية لأن الإقبال كان شديدا في أسواق أوروبا الغربية على شراء منتجات الشرق، وأن التبادل التجاري الذي كان بدايته في منتصف القرن الثاني عشر قد بلغ ذروته في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي[3]. قد نتج عنه تحقيق ازدهار ورواج لأسواق ومعارض أوروبا بصورة غير مسبوقة إذ أن الغرب كان متعطشا لسلع الشرق والكماليات التي أخذت طبقات الغرب الأوروبي تتزود بها حتى أصبحت من الضروريات التي لا غنى عنها.

---

(1) باركر، الحروب الصليبية، ص ص١٥١-١٥٢.

(2)Stephenson, Madieval History, P. 242.

(3) حياة ناصر الحجي، الأهمية التاريخية لميناء عيذاب من منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي إلى منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ندوة البحر الأحمر عبر عصور التاريخ، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ص٨٥-٨٦.

(٤) انتعاش التجارية العالمية :

ليس من شك في أن انتعاش التجارة العالمية كان له أكبر الأثر في قيام الأسواق العالمية، وتحقيق الازدهار والنمو لها، بل وتمكين جميع التجار المشاركين فيها من تحقيق أرباح وثروات غير مسبوقة. إذ يجب أن ينسب النجاح الذي ناله اقتصاد العالم في العصور الوسطى بصورة ما إلى تطور التجارة والتبادل الدولي للبضائع بين الشرق والغرب، وهذا الاتجاه هو الذي أدى إلى زيادة الدخل في بعض المناطق إلى درجة لم يسبق لها مثيل.

والواقع أن الانقلاب الاقتصادي في العصور الوسطى لم يتم في ظل عصر الإقطاع الزراعي الجامد الذي ساد الغرب عندئذ، وإنما تم في الحركة الدائمة للتجارة والصناعة المتوارثة في معظم دول شرق البحر الأبيض المتوسط[١].

على أن الفضل في إحياء النشاط التجاري يرجع إلى التجار الجائلين وبخاصة اليهود، الذين قاموا باستيراد السلع والبضائع لبيعها للنبلاء وأتباعهم. إذ بلغ من سيطرة اليهود على التجارة الأوروبية في ذلك العهد المظلم من العصور الوسطى أن لفظ يهودي Judaeus أصبح مرادفا للفظ تاجر Mercator[٢]. فكان التجار اليهود نشطاء على طول موانئ حوض البحر المتوسط خاصة في تجارة العبيد والجلود. ففي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، زاد عدد العبيد من أسرى الحروب التي نشبت ضد السلاف Slaves[٣] في شرق أوروبا وأصبحوا غنيمة مربحة للتجار في سوق العبيد

---

(١) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٥٠.

(٢) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج٢، ص٩٠.

(٣) السلاف : قد استقر هؤلاء في المناطق المعروفة الآن بأواسط روسيا، وقد تعرضوا لكثير من المتاعب في أوائل العصور الوسطى بسبب ضغط بقية العناصر الآسيوية عليهم والجرمانية كذلك مما عرض كثيرين منهم للاستعباد، حتى اشتقت كلمة رق في كثير من اللغات الأوربية Slave، من اسم السلاف. عن ذلك انظر: سعيد عاشور، تاريخ أوروبا،ج١، ص٧٧.

في فيردون Verdun[1] ، وأخيرا تم بيعهم في دار الخلافة في الأندلس، بعد ذلك قام اليهود بعملية تبادل للسلع الكمالية الواردة من الشرق إلى الغرب، في الأراضي الإسلامية والمسيحية على حد سواء[2]. إذ كان لهؤلاء التجار نصيب كبير جدا في التجارة المحدودة للعصور الوسطى المبكرة، فقد انتشروا كذلك في المناطق المختلفة لأوروبا الغربية، مثل الأجزاء الداخلية من أقاليم فرنسا وألمانيا، ووصلوا إلى حد احتكار التجارة الدولية تقريبا. وإن كانوا أقل شهرة وبروزا في تطوير الأقاليم البيزنطية والإسلامية ذات المكانة التجارية الرفيعة، لكن مستواهم كان أفضل في عالم الرحلات[3]. فقد كانوا دائمي السفر من المشرق إلى المغرب والعكس برا وبحرا ويعملون في تجارة العبيد، والديباج، وجلود الخذ[4]، والفراء، والسمور[5]، والسيوف[6]. كما أنهم وصلوا بأسفارهم إلى بلدان الشرق الأقصى فقد وصلوا إلى

---

(1) فيردون Verdun : مدينة فرنسية تقع على بعد خمس وثلاثين ميلا غرب مدينة ميتز Metz.
عن ذلك انظر: - Setton, A history of the crusades, Vol. II, P. 806.

(2)Holmes (G.), The Oxford History of Medieval Europe, New York, 1992, PP. 214 – 215.
برغم قيامهم بالمتاجرة في السلع الكمالية الواردة من الشرق، إلا أن أشهر أنواع متاجرهم كانت في الرقيق، إذ يذكر ابن حوقل أن: "جميع من على وجه الأرض من الصقالبة الخصيان فمن جلب الأندلس لأنهم عند قربهم منها يخصون ويفعل ذلك بهم تجار اليهود..". عن ذلك انظر: أبي القاسم ابن حوقل النصيبي، كتاب صورة الأرض، ق١، ط٢، طبع في مدينة ليدن بمطبعة بريل، سنة ١٩٣٨م، ص١١٠.

(3)Lopez, Raymond, Medieval Trade., PP. 29 – 30.
فقد اشتهر بعض اليهود كرحالة مثل المؤرخ اليهودي الأندلسي بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela الذي اشتهر بأسفاره إلى الشرق حتى وصل إلى سمرقند والهند، وقد ترك لنا شهادات مهمة عن الأماكن التي زارها. عن ذلك انظر:
- Duruy (V.), Histoire du moyen age depuis la Chute de L'empire d'occident Jusqueu milieu du XV Siecle, Paris, 1880, P. 348.
- Asher (A.), The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela., PP. 3, 20, and 105 106.
- Perroy (É.), Histoire Generale des Civilisations, le Moyen age L'expansion de L'orient Renissance de la Civilisation occidentale, Tome; III, Paris, 1955, P. 259.

(4) جلود الخذ : هي جلود القندس، الذي يصنع من جلده قبعات وكفوف. قاموس إلياس.

(5) السمور: هو نوع من ابن عرس، يصنع من جلده كذلك القبعات والكفوف. قاموس إلياس.

(6) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص١٥٣.

السند والهند والصين. ونجحوا في جلب المسك[1]، والعود[2]، والكافور[3]، والدارصيني[4]، وغير ذلك من المنتجات التي اشتهرت بها تلك الجهات[5].

ونظرا لأوضاع أوروبا آنذاك فقد ترك لليهود وحدهم القيام بأمر توفير أداة ربط أو صلة، مهما كانت ضعيفة بين أوروبا وبين الدول الأكثر تقدما، كالعالم الإسلامي، الإمبراطورية البيزنطية، وحتى الهند والصين اللتين تقعان خلفها. وفي نفس الوقت أي بين القرن التاسع والقرن الحادي عشر، قوى اليهود موقعهم فعليا في كل موضع من أوروبا حتى وجدوا الفرصة للتجارة[6]. ونظرا لنشاطهم هذا فقد قام الملك شارل الأصلع Charle The Bald[7] (٢٢٩-٢٦٤هـ/٨٤٣-٨٧٧م) بجلب جماعة من اليهود عام ٢٦٢هـ/٨٧٥م عند زيارته لإيطاليا واستوطنهم في مملكته. ولعل ذلك كان

---

(1) المسك: عطر من العطور النفاذة الزكية الرائحة يؤخذ من بطن حيوان الغزال، كان يتم صيد الغزلان في المنطقة الممتدة بين التبت والصين. على أن مسك التبت أفضل من مسك الصين. انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٢٨.

(2) العود: مصدره من الهند والصين وسيلان وهو مستخدم كعطر من العطور في الكنائس وله استخدام آخر لإضافته للنبيذ فيفيد في الانفعالات. عن ذلك انظر: عفاف صبره، العلاقات، ص١٧٠، حاشية (٢٠٤).

(3) الكافور : يرد من الهند وجزر الهند الشرقية، ويحصلون عليه من قلب الشجرة نفسها بعد إحداث شق فيها فيسيل السائل في أواني. انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٧٠، حاشية (٢٠٢).

(4) الدارصيني: يطلق على لحاء شجرة القرفة وقد عرفها العرب منذ العصور الأولى، وكانت تستخدم مطحونة في حفظ الأطعمة والنبيذ، وقد دخلت في صناعة العقاقير الطبية، ولم تعرف في أوروبا إلا منذ القرن الثامن الميلادي. انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص ص٢٠١-٢٠٢.

(5) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص١٥٣-١٥٤.

(6) عن اليهود ودورهم التجاري في أوروبا انظر: لوبيز، ثورة العصور الوسطى، ص٨٢، زينب عبد المجيد عبد القوي، اليهود في انجلترا العصور الوسطى ١٠٦٦-١٢٩٠م، ط١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص١٩. بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٨.

(7) شارل الأصلع: ابن لويس التقي وحفيد شارلمان، قسمت الإمبراطورية عقب وفاة والده لويس في اتفاقية فردون عام ٨٤٣م فحصل شارل الأصلع على نستريا وأكوتين والماركية الأسبانية على الحدود الجنوبية، وقد حارب الفيكنج وقاومهم كثيرا حتى وفاته عام ٨٧٧م.
عنه انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٦٤حاشية (٣)، سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٢١٧-٢١٨.

راجعا إلى أنهم من اليهود المتمرسين في التجارة[1]. ثم لم يلبث اليهود أن انتشروا في مدن عديدة في فرنسا وألمانيا وأخيرا في انجلترا في أعقاب الغزو النورماني Norman لها عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م[2]. وأينما حلوا في أي مكان فإنهم كانوا يعملون على تنشيط التجارة نتيجة لخبرتهم التجارية[3]. وكان التجار اليهود يسافرون ويتغيبون مددا طويلة خلال هذه الرحلات[4]. إذ أن القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر سجلا مؤشرا مهما لدور اليهود في الرحلات البعيدة. وهذا الأمر لم يقتصر على البلدان المسيحية فحسب، بل في جميع أرجاء العالم الإسلامي[5]. بيد أن انتعاش تجارة البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي جعل من السهل الاستغناء عنهم كوسطاء مع الشرق. لذا فقد تراجع دورهم في الغرب ليقتصر على

([1])Hollister (C.W.), Medieval Europe A Short History, New York, 1990, P. 152.

Hoyt, Chodorow, Europein the middle ages, P. 265.

([2]) الفتح النورماني لانجلترا : تطلع ووليم دوق نورمنديا، أقوى الدوقيات بدول غرب أوروبا آنذاك، بعد أن نظم شئون دوقيته وسيطر على جميع النبلاء النورمان وركز السلطة كلها في شخصه، إلى فتح جديد يشبع فروسيته وطموحه ويزيده قوة، لذا فقد تطلع إلى فتح انجلترا خاصة بعد ما ساءت أحوال انجلترا السياسية والحربية زمن الملك إدوارد التقي بسبب التنافس على العرش، فلما توفي إدوارد عام ٤٥٩هـ/١٠٦٦م، دون أن يترك ولدا، أعد وليم عدته لفتح انجلترا، فوافق مجلس دوقيته على إعداد حملة لفتح انجلترا، وبعد أن نجح في ذلك لقب بوليم الفاتح. عن ذلك انظر: نظير سعداوي، تاريخ انجلترا، ص ص٦٠-٦٤.

([3])Hollister, Medieval Europe., P. 152.

عن دور اليهود في التجارة الأوربية انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٤٥٠-٤٥٤.

([4]) الدليل على طول المدة التي كان يتغيبها التجار اليهود في أسفارهم يتمثل في القرارات الحاخامية الكثيرة المتعلقة بنقل الملكية وحق الزوجة في أن تتزوج ثانية عندما يتغيب زوجها = = لمدة طويلة من الوقت. وفي هذا دلالة واضحة على طول مدة الرحلات إذ أن القانون كان يقضي بأن الرجل إذا مر عليه سبع سنوات بدون أي أخبار عن مكانه يحق لزوجته أن تتزوج. وبالطبع فإن معظم القضايا التي كانت تظهر هي بسبب رفع التجار الذين عادوا بعد مدة سبع سنوات يطالبون بحقوقهم.

Hoyt, Chodorow, Europe in the middle Ages., P. 265.

([5]) لوبيز، ثورة العصور الوسطى، ص ص٨٢-٨٣.

القيام بالإقراض لأنهم لم يتأثروا بتحريم الربا، المطبق فقط على المسيحيين[١].

ويتجلى صور الاستغناء عن اليهود في التجارة، فيما تعرضوا له، ابتداء من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي وطوال العصور الوسطى من الاضطهاد في أوروبا[٢]. خاصة بعد أن اضطلع التجار الأوربيون بالقيام بدورهم، يتقدمهم في ذلك تجار المدن الإيطالية الذين أقاموا علاقات تجارية وثيقة مع المدن التجارية الكبرى مما أدى إلى انتعاش التجارة العالمية.

جاءت القسطنطينية على رأس هذه المدن إذ أنها كانت تمثل سوقا رائجا جدا بمنتجاتها التي أسهمت بلا شك، في انتعاش التجارة العالمية عموما والتجارة الأوروبية بصفة خاصة[٣]. حتى أن الرحالة بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela الذي زار القسطنطينية وعددا من مدن الشرق خلال رحلته، نجده على الرغم من أنه كان معتادا على المدن الكبيرة المزدهرة في موطنه الأندلس، إلا أنه لا يجد الكلمات التي تسعفه في وصف مدينة القسطنطينية فيقول: "التجار من كل شكل يأتون إلى هنا من أرض بابل، وجميع أنحاء شنغار وفارس وميديا ومملكة مصر، وهم يفدون أيضا من أرض فلسطين، ومملكة روسيا، ومن هنغاريا (المجر)، ومن أرض البتشنج

---

(١) بيرين، تاريخ أوروبا، ص١٢٨.

(٢) عطية القوصي، أضواء جديدة على تجارة الكارم، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٢٢، ١٩٧٥م، ص٢٨.

(٣) حتى أن المدن الإيطالية التجارية سعت جاهدة من أجل الحصول على امتيازات تجارية واسعة من أباطرتها البيزنطيين داخل القسطنطينية نفسها، والمدن التابعة للإمبراطورية كذلك بل إن البنادقة أنفسهم لم يتوانوا عن تقديم المساعدات الحربية لهم في حربهم ضد النورمان مقابل الحصول على تلك الامتيازات، بالرغم من أن البنادقة لم يكن ليسمحوا للنورمان بالاستيلاء على أي جزء من سواحل الأدرياتيك لأن ذلك يضر بمصالحها التجارية في الأدرياتي. عن ذلك انظر: ف. هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة/ أحمد محمد رضا، ج١، ط١، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص١٣١-١٣٥، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية، ص٦٥-٧٢، سميرة يونس، النورمان، ص١٠١-١٠٢، ١١٨-١١٩.

Petchenege[1]، ومن أرض الخزر ومن لومبارديا، وأسبانيا. إذ أنها مدينة تموج بالحركة والنشاط، ويفد التجار إليها من شتى الأنحاء عن طريق البر والبحر. وليست هناك مدينة تشبهها سوى بغداد، مدينة إسماعيل الكبرى"[2]. فقد كانت القسطنطينية مدينة ذات شأن كبير لأوروبا، فأقامت البندقية معها تجارة بحرية مهمة ونجحت في إمدادها بالقمح، والملح، والنبيذ، والأخشاب، وعادت منها بسلع الرفاهية الشرقية[3].

وكان مما أسهم كذلك في انتعاش التجارة العالمية، عودة الظهور التدريجي للاقتصاد المالي. إذ بحلول عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م كان يمكن لأي إنسان أن يبيع فائض إنتاجه ويشتري ما لا ينتجه. وكانت العلاقة الوثيقة بينهما سببا لنمو الاقتصاد المالي الذي كان مصاحبا له في نفس الوقت نمو في التجارة وإحياء للتجارة المتخصصة[4].

ثم ما كان من تأثير تجارة المسافات البعيدة على انتعاش التجارة العالمية إذ كانت الحركة الصليبية – كما مر بنا – في الغالب هي نقطة التحول في هذا الموضوع[5]، على أن ما يعنينا في هذا النطاق هو أن التجارة المصاحبة لتلك الحركة ساعدت في تطور الصناعة وإنماء الصادرات الغربية[6]. إذ من المعلوم في نطاق التجارة الدولية

---

(1) يقصد بهم شعب البوشناق أو البجناك، وهم شعب من أجناس البدو الترك سكنوا البلقان وعملوا مرتزقة حرب، وهم أصل سكان البوسنة في يوغوسلافيا السابقة. عنهم انظر: السيد الباز العريني، تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، عام ١٩٦٥م، ص٧٦٥، ٧٦٩.

(2)Asher, The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela., PP.3, 20, and 105 – 106.

يوشع براور، عالم الصليبيين، ص١٧١.

(3) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص٢٠٧. لمزيد من التفاصيل عن القسطنطينية انظر: نجلاء مصطفى عبدالله شيحة، مدينة القسطنطينية في القرن العاشر الميلادي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م.

(4)Painter, History of the middle Ages; P. 220.

(5) أرشيبالد. ر. لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ٥٠٠-١١٠٠، ترجمة/ أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص٣٩١.

عن المستوطنات التجارية في الدول الصليبية ودورها في إنعاش التجارة العالمية: انظر: هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٤٥-١٧٥.

(6) إذ وجد التجار الغربيون في الشام كل منتجات الشرق الأدنى فلم يكونوا مضطرين من أجل الحصول عليها إلى القيام برحلات طويلة إلى قلب آسيا، إذ كان هناك العديد من الطرق التجارية =

بأن شراء شئ ما يستلزم بيع ما يقابله، ففي مقابل الواردات الشرقية كان على الغرب أن يقابلها بصادرات للمنتجات الخام أو بضائع مصنعة. فكانت واردات المنتجات المصنعة في المشرق ذات النماذج المجهزة، دافعا للصناعة الغربية في أن تقوم بتطوير صناعتها. وسواء كانت المواد الخام محلية أم مستوردة فقد بدأ الغرب على أي حال، على مستويات عدة في تصنيع بضائع مشابهة لتلك البضائع التي يستوردونها من الشرق مثل النسيج، والنسيج المطرز، والسجاد، والأثاث، والميناء، والزجاج. وسرعان ما لحقت المنتجات الغربية بركب المنتجات الشرقية في جودتها[١]. والحقيقة أنه حتى أواخر القرن الثاني عشر كان الطلب في العالم الإسلامي على البضائع الصناعية الغربية قليل، ولكن تغير الحال عندما أصبحت الثياب الفلمنكية، وثياب شمال فرنسا، بل وانجلترا أو المصنعة بمواصفات عالية الجودة أهم السلع التي يصدرها تجار الغرب إلى الأسواق الشرقية. وعلى أية حال فإن الغرب كان ما يزال يعتمد على البلاد الإسلامية في جلب بعض المواد الخام المطلوبة في صناعة هذه البضائع، مثل حجر الشب[٢]، الذي كان يصل من مصر أو من بلاد الشام، وكذلك

=

الكبيرة التي تأتي عبرها هذه المنتجات حتى شواطئ البلد، الأمر الذي أسهم في إنعاش التجارة العالمية. عن ذلك انظر: هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٧٥-٢٠١.

(1)Thompson, Johnson, Medieval Europe; P. 566.

قد شملت قوائم السلع المتبادلة بين الشرق والغرب المنسوجات على اختلاف أنواعها، فاستورد الغرب من الشرق المنسوجات القطنية والحريرية والكتانية والمطرزة بخيوط من الذهب والفضة، أما الشرق فقد استورد من الغرب المنسوجات الصوفية من ألمانيا وانجلترا عن طريق فلورنسا وجنوة والبندقية، وكذلك المنسوجات الكتانية وإن كانت أقل قيمة مما يصنع في مصر. عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٤٤.

(٢) الشب حجر يستخدم في الصباغة وكان موجودا بصحراء مصر، ومن أهم استخداماته تثبيت الألوان في الرسم والتذهيب والدباغة. عن ذلك انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٧١، حاشية ٢١٠.

الصبغات عالية الجودة لاسيما الصبغة الحمراء الأرجوانية من دودة القرمز[١]، التي كانت تأتي من مناطق مختلفة، وغيرها من المواد الخام[٢]. الأمر الذي يعني أن الشرق ظل أمدا طويلا مصدرا تجاريا لأوروبا، حيث تأتي إليه سفن الغرب من معظم أقطاره لتحمل خيرات الشرق من موانئ البحر المتوسط المختلفة إلى أوروبا. فكانت الاسكندرية بمنارتها، على سبيل المثال، أحد الموانئ المهمة التي قدمت إليها السفن الغربية كما وصفها الرحالة بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م[٣]. يأتي وصفه هذا للاسكندرية كرؤية شاهد عيان، رأي مدى أهمية هذا الميناء تجاريا، وما كان يمثله لتجار العديد من الأمم من مكانة. وهو نفس الرواج الذي شهدته وتمتعت به موانئ الساحل الشامي زمن الحروب الصليبية[٤]، الأمر الذي يشهد

---

(١) دودة القرمز: حشرة ذات لون بنفسجي تعيش في جماعات وتجمع وتقتل ثم تصدر كمادة للصباغة. عن ذلك انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٧١، حاشية ٢٠٩.

(٢) آجيوس، هيتشكوك، التأثير العربي في أوروبا، ص٢٢-٢٣.

(٣) فقد وصفها قائلا: "كانت المنارة في الاسكندرية حتى الوقت الحاضر، ترشد الملاحين، وكل الذين يأتون إلى الاسكندرية من كل أجزاء الأرض، فكانت ترى من مسافة تقدر بـ١٠٠ ميل في النهار، وفي الليل كانت المنارة تلقي إشارات ضوئية، وكان البحارة يرونها من بعيد ويذهبون نحوها. وهي منطقة تجارية تتاجر مع كل الأمم. وكان يأتي إلى الاسكندرية تجار من كل الممالك المسيحية من فالينسيا Valencia ، وتسكانيا Tuscany ، ولومبارديا، وابوليا Apulia، وأمالفي، وصقلية، وPakuvia، وقتالونيا، وإسبانيا، وRousillon، وألمانيا، وسكسونيا، والدانمارك، وانجلترا، والفلاندرز، وHainault، ونورماندي، وفرنسا وبواتيه Poitou، وآنجو Anjou، وبيرجوندي Burgundy، وميديا Midi، وبروفانس، وجنوة، وبيزا، وGasscony، ، وآرجوان Aragon، ونافار Navarre ومن المناطق الإسلامية الغربية: الأندلس، البرتغال، وأفريقيا، وبلاد العرب، ومن البلاد المتاخمة للهند، ومن Harila، والحبشة، والنوبة Nubia، واليمن وبلاد ما بين النهرين، وسوريا واليونان (التي كانت تدعى جورجيا)، وأرض الأتراك. وكانوا يجلبون هناك تجارة من كل أنواع التوابل من الهند. وكان التجار المسيحيون يشترون منهم التوابل، وكانت المدينة تنشط بالتجارة، وكانت كل أمة لها فندقها الخاص بها (وبمعنى آخر مستودع ودكاكين من أجل تجارتها". عن ذلك انظر:

Asher, The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, PP. 3, 20, and 105 – 106

(٤) فقد أورد العديد من الرحالة والجغرافيين العرب والأجانب وصفا دقيقا لموانئ الساحل الشامي زمن الحروب الصليبية منهم: ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، ق١، ص١٦٥-١٨٩، الإدريسي، =

على انتعاش التجارة العالمية وقيام الأسواق الأوروبية وتحقيق الرواج لها.

كما كان للشرق دور في انتعاش التجارة في أوروبا العصور الوسطى، فإن نمو هذه التجارة كان مرتبطا كذلك بازدهار التجارة في جنوب أوروبا وتطور القوة البحرية، والصناعية أيضا في شمال أوروبا وجنوبها[١]. إذ أخذ الإيطاليون، خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، على عاتقهم مهمة ممارسة التجارة مع مدن ما وراء الألب، فقد دخل الجنويون وغيرهم من الإيطاليين فرنسا عن طريق مدن وادي الرون Rhone Valley. وكان هناك أيضا معابر وممرات آمنة تمر من خلال الألب، الأمر الذي أتاح للإيطاليين فرصة الوصول إلى قلب أوروبا الغربية، حيث تكدست رؤوس الأموال عندهم مما مكنهم من تمويل العمليات التجارية خلال تلك الفترة إذ أصبح تجارهم وصرافوهم قادرون على القيام بدور رئيسي في التجارة[٢]. ونظرا لما اشتهرت به فرنسا من الرخاء، هرع إلى أسواقها التجار من سائر أنحاء أوروبا، وازدهرت التجارة الداخلية على موانئ الأنهار الكبيرة أمثال السين Seine، واللوار Loire، والجارون Garonne، وارتحل الحجاج من إقليم إلى آخر لزيارة المشاهد المقدسة[٣]، واشتد ارتباط الفلاندرز Flanders بوسط

=

نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ق٣، ج٥، ص٣٦٢، ٣٦٦، ٣٧١. كما أورد وصفا دقيقا ومهما للاسكندرية ومنارتها كذلك: ق٣،ج٤، ص٣٢٠-٣٢١.

(١) عزيز سوريال عطية، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٥٠.

(2)Adelson, Medieval Commerce, P. 67.

عن دور الجنويين والبيزيين في المتاجرة بالقسم الجنوبي من فرنسا وأثر ذلك على انتعاش التجارة. انظر:

Asher, The Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela; PP. 3, 20 and 105 – 106.

هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص١٩٦.

(٣) فقد تمتعت فرنسا بالعديد من المناطق التي نالت شهرة دينية بسبب أحد القديسين أو أحد الكنائس مثل القديس دنيس St. Denis، وكنيسة نوتردام Notre- Dame، وغيرها. عن سوق القديس دنيس انظر: Migne, Patrologiae Cursus Completus, Vol. Lxxx, P. 510.

عن استخدام رفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة كوسائل جذب للمدن والأسواق. انظر: الأمين أبو سعدة، التوظيف السياسي لرفات القديسين، ص٤١٠-٤٢٢.

فرنسا وجنوبها، بفضل ما قام من أسواق عديدة نمت وتطورت أثناء تلك الفترة، وكانت أسواق شامبني Champagne في القرن الثاني عشر امتدادا لها. وأكثر ما اشتهرت به تجارة فرنسا، النبيذ، الذي كان يشحن إلى نورمنديا Normandy وانجلترا والفلاندرز Flanders، بينما حصلت فرنسا على الأقمشة الفلمنكية. وازداد الاتصال التجاري بين ألمانيا واسكندناوة Scandnavia وشرق أوروبا[١]. كما شهدت البلاد المنخفضة نهضة بحرية بها، حيث هيأت الطبيعة تلك البلاد للتجارة[٢]. وكان لنجاح كل هذا النشاط التجاري عبر أوروبا أكبر الأثر في انتعاش التجارة العالمية.

كما كان لتطور الحياة البحرية أكبر الأثر في انتعاش التجارة العالمية، حيث حققت التجارة البحرية نجاحا وتقدما مشابها لذلك النجاح الذي حققته المعارض عن طريق التجارة البرية، وأصبحت حركة المرور البحري أيسر منذ أن أصبح الغرب نموذجا للدولة المسيحية، ومنذ أن أخذ الغربيون في التوسع في أراضي الشمال والشرق. وأصبحت الملاحة أكثر نشاطا وأكثر انتشارا فكان استخدام الحق في الاستيلاء على حطام السفينة الغارقة وعلى حمولتها قد تم إلغاؤه في إيطاليا وقطالونيا Catalonia[٣]، وفرنسا وانجلترا، وذلك لأن هذا الأمر يتنافى مع القانون. وقيدت الأعمال الانتقامية. وتم تنظيم وجمع القانون البحري في مجموعات مثل قوانين ميناء تران Trani[٤]، ومارسيليا

---

(١) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم الأوربية، ص١١٣-١١٤.

(٢) نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، ج١، ص٨٨١-٨٨٢.

(٣) قطالونيا : تقع في الشمال الشرقي من شبه جزيرة أيبريا، يتكون إقليم قطالونيا من أربع مقاطعات وهي: برشلونة، جيرونا، طركونة، ولادة، وبرشلونة عاصمة الإقليم وهي الميناء الرئيسي لأسبانيا وأكبر مراكزها الصناعية. عن ذلك انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٥٣.
عن قانون الحطام، والقوانين التي صدرت ضد هذا القانون في منطقة البحر المتوسط، والعقوبات التي صدرت. انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٤٧٣-٤٧٥.

(٤) تران: تقع في منطقة باري Bari، بولاية أبوليا Aulia، جنوب شرق إيطاليا، على بحر الأدرياتيك. انظر:
The New Encyclopaedia, Vol. X, P. 88.

Marseilles، وأصبح العرف التجاري لطرطوشة Tortosa[1]، وبرشلونة Barcelona، وقوائم Oleron، وشرائع ويسبي Wisby، ينظم أجرة التسليح ضد أخطار البحر، وينظم أجور وعائدات الميناء. ومن أجل حماية التجارة أو لتنظيم القضايا التي تترتب عليها أقاموا سلطات قضائية خاصة، وقنصليات بحرية داخل السفينة وقنصليات عادية ومحاكم البحر في المدن البحرية[2]. وظهرت وثائق التأمين البحرية لضمان قيمة السفن والحمولة. بينما تكفلت الحكومات بشن الحرب ضد القرصنة التي ظلت نشطة أحيانا ولكنها كانت متقطعة ومتغيرة الكفاءة[3]. وقد ساعد على انتشار التجارة كذلك ما طرأ من تحسن في بناء السفن فضلا عن إقامة المنارات في المدن الساحلية لإرشاد السفن، وأصبح لكثير من هذه المدن أحواض واسعة لرسو السفن. وقد تواجدت في المدن البحرية السفن الصغيرة إلى جانب السفن الكبيرة، إذ كانت تبلغ حمولة بعض هذه السفن حوالي ثلاثين طنا. وكان في مقدورها لصغر حجمها وقلة حمولتها أن تسير لمسافات بعيدة في الأنهار. هذا فضلا عن السفن التي اجتازت البحار من ميناء إلى آخر، ولهذا أصبحت المدن الساحلية ثغورا مزدهرة[4].

وكانت التجارة المتزايدة والتي لم تقتصر فقط على السلع المتميزة، خاصة في التجارة بعيدة المسافة عاملا في زيادة الشحن بصورة كبيرة، وأصبح هناك سفنا سريعة، مصممة بشكل مناسب الأمر الذي هيأها لتستخدم لنقل كميات كبيرة نسبيا حيث نقلت سلع الكماليات الثمينة بسرعة في المسافات الطويلة. وكان هناك أيضا

---

(1) طرطوشة: إحدى مدن أسبانيا تقع في مقاطعة طركونة في قطالونيا، وهي عاصمة كوماركا Comarca. عنها انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٥٣.

(2) عن قوانين الملاحة البحرية التجارية، وتطور نظم التجارة انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٥٧-٢٦٦.

(3) Boissonnade, Life and Work; PP. 173 – 174.

عن القوانين البحرية التي ساعدت في تعزيز القوة الملاحية والتجارية لبرشلونة وعالميا. انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٤٦١-٤٦٤.

(4) Boissonnade, Life and Work; P. 174.

محمود عمران، حضارة أوروبا، ص١٦٥.

سفنا عريضة تستخدم لنقل الشحنات الثقيلة ببطء ولمسافات طويلة. فقد تم نقل قمح وسمك من البحر الأسود إلى إيطاليا على متن هذه السفن. وكانت قوافل السفن الثقيلة تستخدم لحمل السلع من إيطاليا إلى انجلترا والأراضي المنخفضة[١]. كما أصبح هناك اهتمام كبير بتحسين إمكانيات الموانئ خاصة في المدن البحرية، من أمثلة ذلك، ما بذله الملك جيمس James[٢] (٦١٠-٦٧٥هـ/١٢١٣-١٢٧٦م) من جهود لتحسين إمكانيات الشحن في برشلونة Barcelon، ولحماية مصالح البحارة لذا فقد أعلن للجميع أنه نظرا لأن مواطني برشلونة يقومون يوميا بالتحسن في أنشطتهم الخاصة بالتحميل، فقد رغب في زيادة ثروتهم وتحسين المدينة لمصلحة الجميع. فقرر أن تخصص المنطقة الممتدة من أرازانا Arazana في الغرب وحتى المبنى الجديد الذي أقامه برنارد أولزيتو Bernard Olzeto في الشرق، ومن البحر ذاته وحتى البيوت الموجودة على الصخور، لتصنيع وصيانة السفن والقوارب الصغيرة الأخرى. وأنه من غير المسموح لأحد ببناء بيوت أو أماكن إقامة أو ورش أو محلات أو أي نوع آخر من المباني صغيرة أو كبيرة، بل إنه في حالة إذا ما قام أحد أي مباني في هذه المنطقة وبدون أي التماس فإنها سوف تدمر دون أدنى عقوبة جنائية أو مدنية، ذلك لأنه لا حق لأحد في الإقامة هناك[٣]. الأمر

---

(1)Adelson, Medieval, Commerce, PP. 83 – 84.

(٢) هو الملك جيمس الأول James I، الذي لقب بملك أرغونة Aragon، وماجوركا Majorca، وبلنسية Velencia، وكونت برشلونة Bercelon، وأورجل Urgell، وسيد مونبليه Montpellia. عن ذلك انظر:

Capmant, A.de, Memorias Sobre la Marina, Comercio, y Artes de la Antigna Ciudad de Barcelona, Vol. II, Medrid, 1779 – 92, A.D. 1243, P. 18.

سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج١، ص٥٥٣. ولمزيد من التفاصيل انظر:

Chapman (C.E.), A History of Spain , New York, 1931.

(٣) Capmany, A. de, Memorias Sobre la Marina, Vol. II, A.D. 1243, P. 18

عن تطور الحركة الملاحية والسفن هناك. انظر: هناء الراشد، التاريخ السياسي لإمارة قطالونيا، ص٤٦٥-٤٧٢.

الذي يظهر أهمية إنشاء موانئ لرسو السفن وتحسين الموانئ القديمة في نفس الوقت وهو ما اتبعته كل المدن البحرية الأوروبية الأمر الذي أسهم في انتعاش التجارة داخل المدن وبالتالي التجارة العالمية.

كما أسهم ظهور البوصلة البحرية في تطور الملاحة، وإن كان لا يعرف بدايتها على وجه التحديد، فقد نجح الملاحون الصقليون حوالي عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م[١]، في إمكان استعمالها في عرض البحر بتثبيت الإبرة الممغنطة فوق قطب متحرك[٢]. ومع هذا فقد مرت حوالي مائة عام بعد هذا الاختراع قبل أن يجرؤ الملاحون – عدا أهل الشمال – في الابتعاد عن السواحل والإبحار بالسفن وسط البحار الواسعة[٣]، وقد أخذ الغرب هذا النظام عن العرب. كما وضع الإيطاليون والقطلان الخرائط البحرية الأولى، التي رسموها وفقا لخبرتهم الطويلة في الملاحة، ومع ذلك فقد ظلت الملاحة مرتبطة بحركة الرياح واتجاهاتها خلال شهور معينة[٤].

---

(١) عرف الإيطاليون البوصلة منذ أواخر القرن الثاني عشر، إلا أنهم لم يستخدموها في البحر المتوسط إلا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. وأحدث استخدام البوصلة تطورا كبيرا في عالم الملاحة والتجارة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بالنسبة إلى المدن الإيطالية التجارية. عن ذلك انظر: عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص٦٠.

(٢) يبدو أن الصينيين كانوا أول من اخترع الإبرة الممغنطة، ومن ثم استخدمها المسلمون، ومن بعدهم استخدمها البحارة الإيطاليون قبل كل الشعوب الأوروبية، وكانت مدينة بيزا أول مدينة إيطالية استخدمت البوصلة وذلك عام ٦٧٩هـ/١٢٨٠م. عن ذلك انظر: عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص٦٠، حاشية (٢٧).

(٣) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص١٦٦.

(٤) إذ يذكر ابن جبير "أن الريح الشرقية لا تهب إلا في فصل الربيع والخريف والسفر لا يكون إلا فيهما، والتجار لا ينزلون في البلاد العربية إلا في هذين الفصلين، والسفر في الفصل الربيعي من نصف إبريل وفيه تتحرك الرياح الشرقية وتطول مدتها إلى آخر مايو، والسفر في الفصل الخريفي من نصف أكتوبر ومدته قصيرة. والمسافرون للمغرب وصقلية وبلاد الروم ينتظرون الرياح الشرقية في هذين الفصلين". انظر: ابن جبير، الرحلة، ص٣١١.

عن مواعيد إقلاع السفن واتجاهاتها انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٦٧-٢٧٢، عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٢٧-١٣٣، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص٥٨-٥٩.

- Boissonnade, Life and Work; P. 174.

إذا فقد شهدت التجارة البحرية تطورات ملاحية مهمة فإلى جانب البوصلة، تم استخدام شراع السفن المعروف بالشراع اللاتيني في البحر المتوسط، وأحدث هذا التجديد أثرا – ليس في بحار الجنوب فحسب، وإنما أيضا في البحر المتوسط – فيما بعد – فأسهم ذلك في تقليل مخاطر الملاحة وتأمين السفن وحياة ملاحيها وتجارها، إلى جانب ظهور دورة ملاحية تجارية جديدة ومواسم منتظمة على مدار السنة. فانتظمت الملاحة ودخلت تجارة البحر المتوسط مرحلة جديدة، لم تعد التجارة فيها تجارة ساحلية كما كان الحال من قبل، عندما كانت المراكب تسير في محازاة الساحل وعلى مقربة منه تجنبا لكل ما ينذر من مخاطر[١]. الأمر الذي ترتب عليه ازدهار تجاري غير مسبوق فانتشرت الرحلات البحرية التجارية، وأخذت صفة مستمرة وتطورت القوانين والنظم التجارية على كافة المستويات. فظهرت الشركات التجارية نتيجة للخوف من الأخطار الناتجة عن أعمال القرصنة في البحر أو حتى عن الحروب والمنافسات التجارية بين الدول التجارية بعضها البعض[٢]، مما جعل التجار يلجأون إليها كنوع من أنواع الحماية وتفادي الأخطار حتى عبر الطرق البرية كذلك[٣]. وكانت هذه الشركات في البداية وقتية وتكونت دفعة واحدة ثم تجمعت بانتظام في شركة واحدة مستقرة ومنتظمة، والتي تنظم تغير محلها في أوقات ثابتة ضمن خطة مبكرة مبنية على عدد التجار في المنطقة الواحدة، والمتنقلين ومستخدمي البحر الواحد وأيضا سكان نفس المركز التجاري منفردين أو مجتمعين في مجموعات محترفة[٤]. وقد شهد الغرب تطور هذه الشراكة في التجارة الخارجية، نظرا لارتباطها

---

(١) صبحي لبيب، سياسة مصر التجارية، ص١٢١.

(٢) عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص٣٥.

(٣) نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٧٣.

كان من دوافع اللجوء إلى مثل هذه المشاركة كذلك الخوف من المساهمة برأس المال كله في عملية تجارية واحدة أي "رحلة واحدة" إذ ربما تتعرض هذه الرحلة لأخطار أو خسارة، فيتجنب ذلك بالمشاركة حتى يستطيع التاجر أن يعوض من خسائره في إحدى العمليات التجارية من الأرباح التي قد يحصل عليها من عمليات أخرى. عن ذلك انظر: عفاف صبره، العلاقات بين الشرق والغرب، ص١٦٢.

(4)Perroy, Histoire Generale des Civilisations; P. 260.

=

بتجارة البحر المتوسط المتطورة، ففي القرن الثالث عشر الميلادي، نجد مارسيليا Marseilles، إحدى المدن التجارية النشطة احتاجت شراكة على مستوى كبير نسبيا. ففي إحدى هذه الشراكات نجد الشريك النشط (أو المخاطر) يسهم ثلث رأس المال وله نصف الربح[1]. ففي هذه الشراكة نجد الشريك المخاطر يساهم بنسبة من رأس المال المدفوع في الشراكة، ويقر بأنه ملزم باتباعه تعليمات الشريك الأول بشأن تحديد وجهة الرحلة البحرية القادمة التي سيقوم بها، والتي يرى ضرورة الاتجاه إلى عكا أو صقلية Sicily، أو حسبما يرى الشريك الأول مقابل الحصول على نصف الربح وله النصف الآخر. مع بذله الوعد في هذا الاتفاق بأن يراعي شئون الشراكة، وأن يقوم بالعمل على أكمل وجه، وبقدر استطاعته كذلك[2].

مما سبق يتضح لنا أن هناك عوامل كثيرة أسهمت في انتعاش التجارة منها عودة ظهور التجار المحترفين في الغرب الأوروبي، وقيام تجارة المسافات البعيدة الأمر

=

قد تعددت أنواع الشركات التجارية مع تطور التجارة واتساعها، فظهرت في البداية الشركة العائلية Family partnership أو ما أطلق عليها الشركات الأخوية Fraterna Compania التي ضمت أعضاء الأسرة الواحدة، ثم تطورت إلى عقود الزمالة أو شركة التوصية المساهمة Commenda Compania، وينقسم أفرادها إلى قسمين قسم يشارك برأس المال ويسمى Stans، وهو التاجر = = المقيم، والآخر يسمى الـ Tactator، أي المشترك بجهده، وينص العقد بأن يكون ربع الربح للتاجر المسافر أو المخاطر، بينما ثلاثة أرباع الربح تكون لصاحب المال، ثم تطورت إلى اتحاد الشركات.

عن ذلك انظر: نعيم زكي، طرق التجارة، ص٢٧٣-٢٧٧، عادل زيتون، العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب، ص٣٥-٤٠.

لمزيد من التفاصيل عن الشركات البحرية وتطورها انظر:

- Cipolla (C.), Money, Prices and Civilization in the Mediterrancan World, Princton, 1956.

- Clive (D.), A History of Commerce, London, 1950.

([1])Apartnership in Foreign Trade. In; Cave, Coulson, Asource Book; P. 188.

([2])Bancard (L.), Documents Inédits Sur le Commerce de Marseille au Moyen Age, Vol. II, A.D. 1248, P. 35.

الذي أسهم في إنماء التجارة العالمية وتطورها. ومن تلك العوامل أيضا تطور الملاحة وحركة السفن، وتحديث القوانين التجارية، فكلها أمور أدت إلى انتعاش التجارة العالمية مما ترتب عليه ظهور الحاجة إلى قيام معارض تجارية دولية تتلاءم مع هذا التطور وتستوعب النشاط التجاري الكبير الذي شهده الغرب في نهاية العصور الوسطى.

الفصل الثاني

أهم الأسواق الأوروبية العالمية
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين

ويشتمل على :